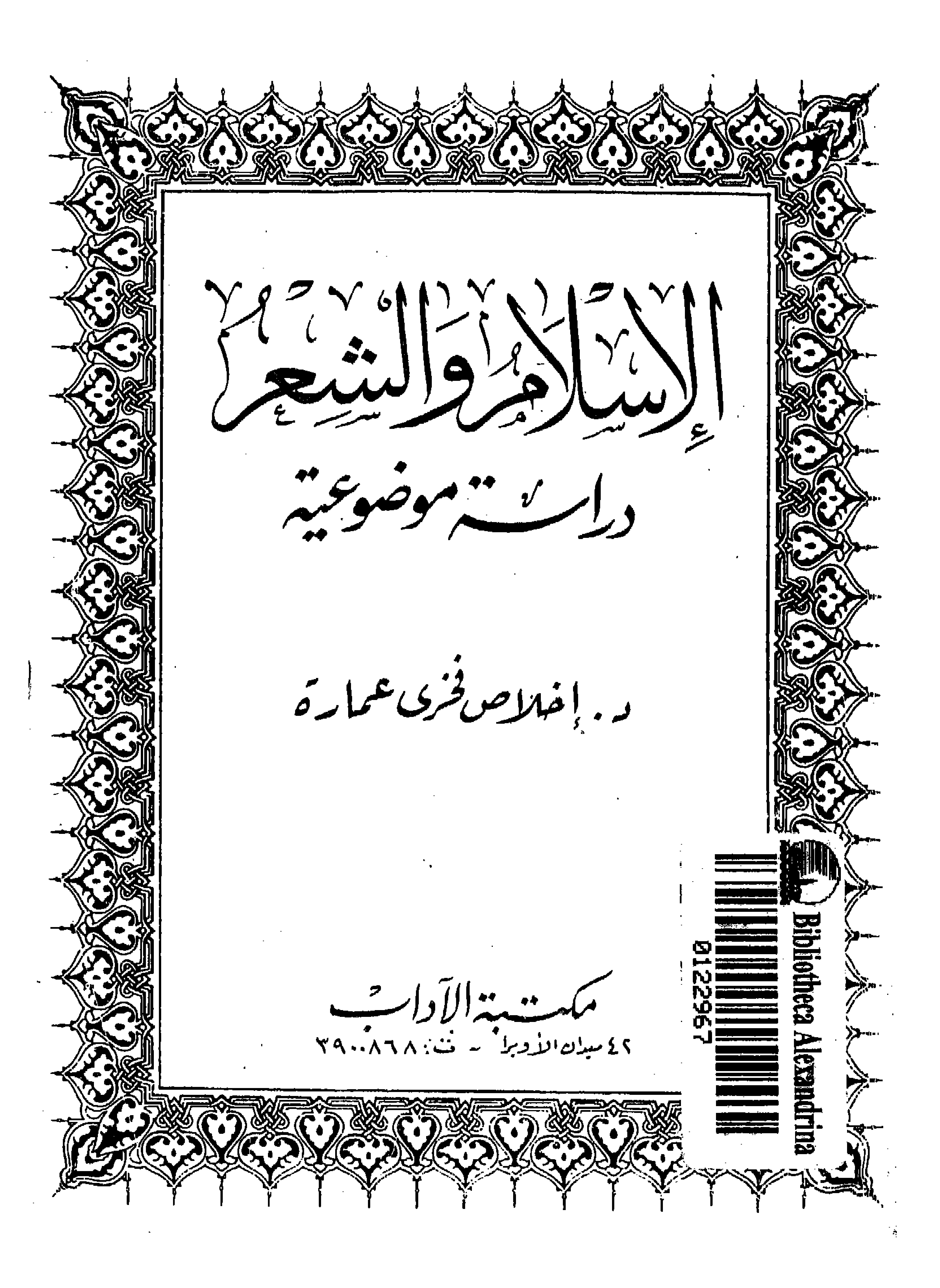
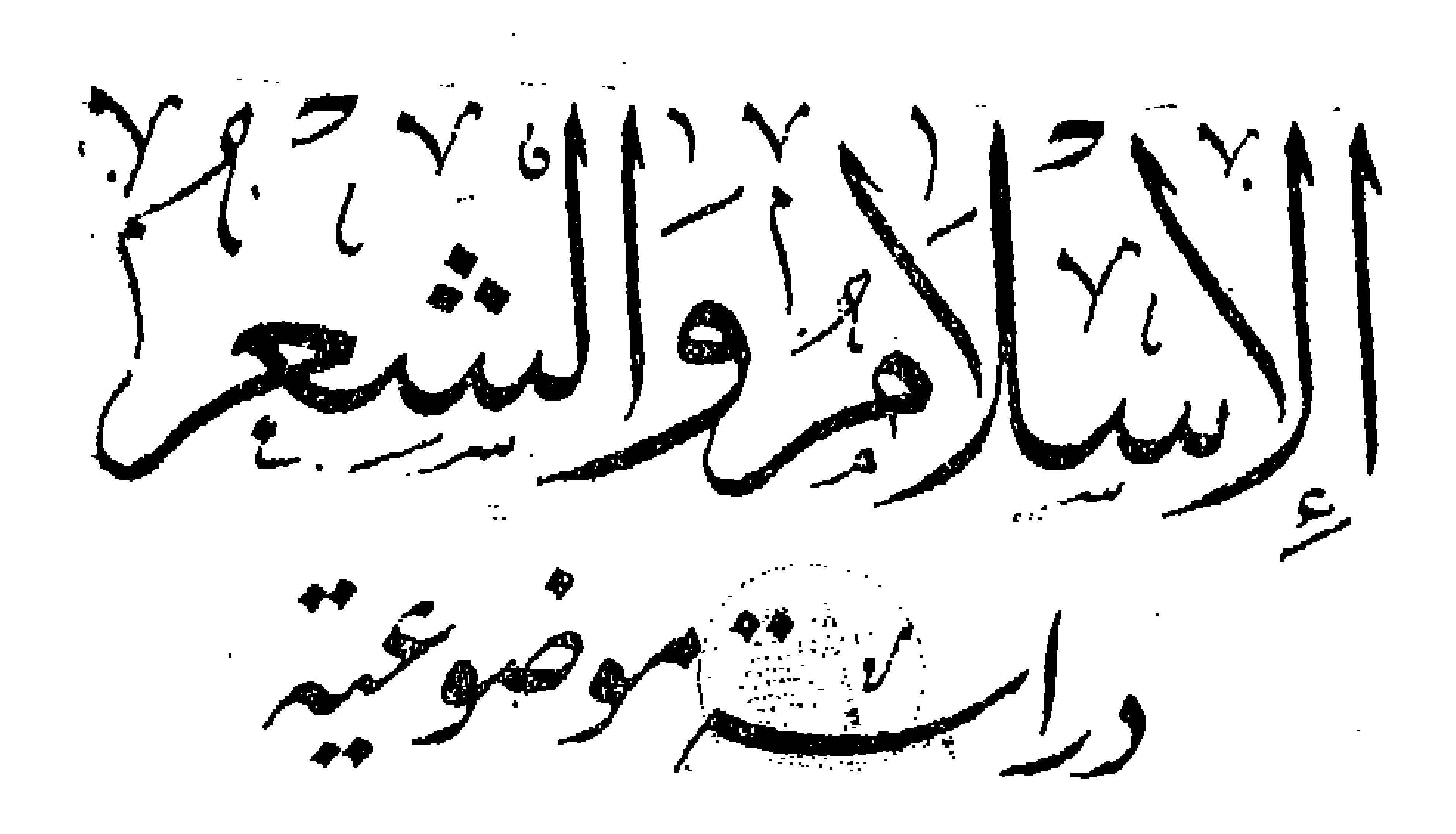


الإسلام والشعر

دراسة موضوعية

د. إخلاص فخري عمارة

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - ت: ٣٩٠٠٨٦٨



د. إخلاص فخري عمارة

كلية الألسن — جامعة عين شمس

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

إهـــداء

إلى والدى يرحمه الله

فكثيرا ما عارض اتجاهى لدراسة الأدب ، وتمنّى لو تخصصت فى أحد علوم الدين .

وعزمت أن أرضيه ما أمكننى ، حين أحاول الإفادة من دراسة الأدب لحماية اللغة ، والذود عن الدين ، وهذه إحدى محاولاتى ، قُربَى لله ، وإرضاء لأبى .

د . إخلاص فخرى عمارة

مقدمة

حين هممت بتناول موضوع الإسلام والشعر، كنت أعلم أن عشرات من الباحثين ومؤرخي الأدب قد سبقوني إلى تناوله، واطلعت على وجهات نظرهم في أغلب المؤلفات، وأفدت منها، ومع ذلك قويت رغبتي في معاودة النظر لهذه القضية وكلي ثقة في أن أقدم جديدا، وأحسبني فعلت.

لقد جمعت كل الآيات التي تحدثت عن الشعر والشعراء في القرآن الكريم، وفسرتها واستخلصت ما عالجته من نقاط، مستعينة بآراء السابقين وشروحهم.

ثم عرضت أغلب ما أثر عن الرسول - ﷺ - من قول أو فعل يتصل بالقضية وقسمته إلى أنواع واجتهدت في فهم الموقف الحقيقي من خلال المتعارض والمتفق من الأحاديث والمواقف النبوية.

وأكملت بذكر أمثلة من الأقوال والأفعال المروية عن صحابة رسول الله - عليه السلام - وخلفائه الراشدين - رضوان الله عليهم جميعا.

وبعد ذلك استعرضت آراء المؤيدين والمعارضين في مناقشة تفصيلية منسقة.

وخلال المناقشة أسهبت في مواضع لم يوفها الآخرون حقها، ورددت على شبهات لم يتوقفوا أمامها، وصححت مفاهيم وأفكارا غابت عنهم، أو تجاوزوها.

ذلك هو الجانب النظرى فى القضية ، لكنى أضفت لها جانبا تطبيقيا، كى أبرهن على ما توصلت إليه من نتائج . لقد انتهيت فى المجال النظرى إلى أن للاسلام أثر إيجابى محمود على الشعر العربى ، وأنه ازدهر وتطور فى ظل الإسلام فاتسعت مجالاته وتعددت أغراضه ، كما ارتقت أساليبه ، حين تغيرت – بفضل القرآن والحديث – مقاييس البلاغة ، وشروط البيان والفصاحة .

وإثباتا لما ذهبت إليه قدمت عددا من النماذج الشعرية فى عهد النبوة والراشدين ، وعرضتها على مقاييس النقد والدراسة الفنية ، كى أكشف ما طرأ على الشعر الإسلامى من تطور وتجدد وحيوية .

إنى لأرجو أن أكون قد حققت بعض ما تطلعت إليه، حين عاودت الكتابة فى موضوع سبقنى إليه الكثيرون .

والله الهادى سواء السبيل .

د . إخلاص فخرى عمارة
روكسى ت : ٢٥٦٢٢١٥

تهم باطلة

دأب المغرضون من أعداء الإسلام والعروبة (١) على النيل منهما بشتى السبل وكافة الوسائل ، فإن أعياهم العداء السافر والحرب الضروس ، لجأوا إلى مقاتل خفية وإلى طرق ملتوية ، فهذا إغراء بما عندهم من بضاعة مادية ومعنوية حتى ينجذب إليها المسلمون والعرب ويعرضون عما لديهم ، ثم ينكرونه ويتجاهلونه ، ومن ثم ينسونه فيتغربون ، ويتشتتون ويضيعون بدداً .

(١) المغرضون يتمثلون فى : المشركين والمنافقين ، ثم الشعوبيين ، فالاستعمار والمستشرقين ، ثم من دار فى ركابهم عن جهل أو عن سذاجة من العرب والمسلمين الذين استغربوا لأنهم تلقوا علمهم وثقافتهم فى الغرب فتشربوا روحه وفكره ، فضعفت عروبتهم ووهن إسلامهم .

وأنا لا أفصل بين العروبة والإسلام ، فكل مسلم عربى ، لأنه كى يحسن إسلامه لا بد أن يعرف العربية — لغة القرآن والحديث — فإذا عرفها تعرب لسانه وفكره ، وبالتالى تعرب وجدانه وهواه فصار عربياً وإن لم ينتسب للأصول العربية من جهة الجنس .

أما من يخشون الجمع بين العروبة والإسلام ، لوجود عرب غير مسلمين ، فليطمئنوا لأننا نرحب بغير المسلمين بيننا ما داموا عربا بالفكر والقلب ، وكل ما قصدته هو أن دائرة العروبة أوسع من دائرة الإسلام ، فكل مسلم عربى وإن لم يكن بالضرورة كل عربى مسلم .

وهـذا انتقاص مما عند المسلمين والعرب من بضاعة معنوية ومادية وازراء بها وتحقير لها ، حتى يعافها أصحابها ويتخلوا عنها ، فيفقدوا هويتهم وأصالتهم .

وقد تكون الوسيلة هي إتيان العرب والمسلمين من حيث لا يحتسبون وطعنهم في ظهورهم وهم لا يشعرون ، وذلك ما تمثل في إبداء الآراء وعرض وجهات النظر حول أدبهم وحضارتهم وتراثهم ، فإذا كان الشعر مفخرة العرب وفنهم الأول ومجال نبوغهم ، فإن هناك شكوكا حول نشأته البعيدة ، وتأثره بأشعار الأمم الأخرى ، ثم هناك ريب ، بل تأكيدات حول انتكاسته وضعفه بعد ظهور الإسلام لأنه عاداه وحقره وهاجم مبدعيه .

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية قد بلغت ذروة لم تبلغها ثقافة أخرى في العصر الإسلامي أيام بني أمية والعباسيين ، فقد انهارت وتراجعت في العصر التالي أيام الدويلات والمماليك، ثم انطمست تماما وخمد كل بصيص لها في ظل الخلافة التركية ، وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد تميزت بسمات فريدة وتألقت بخصائص يعز على المغرضين فهمها واستيعابها، فليكن غمزها من حيث كونها جامدة متخلفة ، تتنافى مع التقدم وتخاصم الحداثة .

وإذا كانت اللغة العربية هي جوهر العروبة ورابطة الإسلام ، وهي النسب الحقيقي لكل عربي ومسلم ، هي لغة القرآن وحافظة الدين ، وهي أعرق اللغات الحية ، وأعظمها ثراء ، وأفصحها بيانا ، وهي الوحيدة

التى قاومت كل عوامل الفناء ، وتطورت مع الزمن دون أن تفقد جوهرها أو تتغير خصائصها - إذا كانت اللغة العربية كذلك - فليكن البحث عن محاولات خبيثة لإضعافها تدريجيا حتى يتم القضاء عليها ، لتكن الدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية مرة ، والمناداة بكتابتها كما تنطق مرة أخرى(1) ولتكن الثالثة - القاصمة - هى الدعاية لتوسيع نفوذ اللهجات المحلية ، وكتابة الأدب بها ، حتى تسود لهجة كل إقليم فينعدم التفاهم ويتم الانفصال ، وتموت الرابطة التى تجمع المسلمين والعرب على امتداد أوطانهم واتساعها .

وأقسى وأوجع ما فى تلك المحاولات أن القائمين بها ليسوا أجانب وأعداء فقط ، ولكن يشاركهم ويُسهم معهم للأسف وللخجل عرب ومسلمون .

وفى تصورى أن من أوجب واجبات المثقف المسلم ، التصدى لتلك المحاولات ، وإماطة اللثام عنها وكشف أهدافها الأصلية ، وهذا التصدى لا يقتصر على مقالات ودراسات صريحة مباشرة تُحبطها ، ولكنه يجب أن يتم فى كل لحظة ، وعلى كافة المستويات وفى شتى المجالات ، ولا إخال مجال الأدب إلا أوسع المجالات وأهمها ، لذلك تأتى الصفحات التالية لمعالجة زعم وادعاء - بل الأحرى أن يقال افتراء - شارك فيه الكثيرون عن سذاجة وعدم تبصر ، أو عن سوء قصد وخبث نية ، ذلك الزعم

---

(1) صاحب الدعوة الأولى هو عبد العزيز فهمى وبعده سلامه موسى ، وصاحب الثانية هو طه حسين الذى كتب اسمه أيامها هكذا : طاها .

الذى نال من الشعر العربى فى عصر النبوة والراشدين بترديد مقولات خاطئة ، مثل عداوة الإسلام للشعر ، وانشغال المسلمين عن نظمه وروايته ، وقلة عدد الشعراء ، وضعف المستوى الفنى . وليس فى مناقشة هـذه الادعاءات ما ينتقص من الاسـلام أو يضعه موضع الاتهام الذى يتطلب دفاعا وتفنيدا وتبرئة(١)

بل هو تبديد للغبار الذى قد يحجب الرؤية الصحيحة عن الناشئة ، ودحض لمزاعم قد تـكدر نصاعة الحق ولو للحظات .

* * *

(١) قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى : د . محمد عبد العزيز الموافى ص ١١ .

أولا : موقف القرآن الكريم

خير ما نستهل به حديثنا فى قضية الإسـلام والشعر هو استعراض الآيات التى حوت لفظ شعر أو شاعر أو شعراء ، لأن القرآن دستور الإسلام ومنبع الأحكام ، ومنه ينهل الجميع ويستمدون .

لقد وردت الألفاظ الثلاثة فى ستة مواضع عبر كتاب الله الـكريم ، وهى على الترتيب :

١ — قال تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (١) .

٢ — ويقول عز شأنه ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (٢) .

٣ — كما قال جلت حكمته ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٣) .

٤ — وقال — وهو أصـدق القائلين — ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥ (٢) الشعراء ، آيات ٢٢٤/٢٢٧

(٣) سورة يس آية ٦٩ (٤) سورة الصافات ، آية ٣٦/٣٧

٥ — ويقول سبحانه ﴿ فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾[1] .

٦ — وقال الحق – تبارك وتعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾[2] .

وحين نتدبر معانى الآيات الكريمة فسنجدها تتجه إلى ثلاثة اتجاهات ، أو تتعرض لثلاث قضايا هى :

١ — اتهام الكفار للرسول – ﷺ – بأنه شاعر ، ونفى القرآن لهذه التهمة الباطلة .

٢ — ادعاء الكفار والمشركين أن القرآن العظيم شعر أو من كلام الشعراء ، ودفع الآيات البينات لهذا الادعاء .

٣ — أما القضية الثالثة التى تتناولها الآيات فهى حديث عن الشعراء وسلوكهم ، فتقسمهم إلى فئتين بحسب سلوك كل فئة ، ثم تحدد مصير المشركين الظالمين .

١ — القضية الأولى : نفى صفة الشاعرية عن الرسول – ﷺ – فلا هو شاعر يمتلك موهبة الشعر ، ولا هو قد تعلم وأجاد أدوات الشعر

---

(١) الطور : آية ٢٩/٣٠

(٢) الحاقة : آيات ٣٨/٤٣

وعلومه . وقد تكررت مناقشة هذه القضية في عدة آيات هي قوله سبحانه :

(١) ﴿ بل هو شاعر . . ﴾ الأنبياء ، آية ٥

(٢) ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يس ، آية ٦٩

(٣) ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ الصافات آية ٣٦

(٤) ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ الطور ، آية ٣٠

لقد بهت الكافرون حين واجههم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ، كلام إلهي لا يأتيه الباطل ، ولا يدانيه في البلاغة والبيان أي كلام آخر ، وأسقط في يد المكابرين لأنهم لم يجدوا ما يردّون به عليه من منطق سليم وحجة واضحة ، فليس إلا العناد والمكابرة ، والانحراف إلى قضايا فرعية ، وادعاءات كاذبة ، واتهموا الرسول - وهو الصادق الأمين - بأنه شاعر ، مثلما اتهموه بأنه ساحر ، أو كاهن ، أو مجنون ، أو يتلقى عن الشياطين ، أو يعرف أساطير عن الأمم الغابرة فيحكيها ،

أكاذيب وافتراءات يتصدى لها القرآن العظيم بآياته البينات فيفندها واحدة بعد أخرى ، نافيا تلك الصفات التي يحاول المشركون إلصاقها بالرسول الكريم بغيا وعدوانا .

ولو رجعنا للآية رقم واحد - وهي من سورة الأنبياء - لوجدنا قبلها آيات كثيرة تحكي إعراض الكفار عن ذكر الله ، وإصرارهم على رفض ما يأتيهم به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه - كما يدّعون - بشر مثلهم ، ولا بد أن القرآن - حسب ظنهم سحر أو شعر أو خيالات نائم ، يقول - جلت حكمته -

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ، قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم، بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

أما الآية رقم ثلاثة فهى نفى صريح لمعرفة الرسول الكريم بفن الشعر وأدواته ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ ثم تأكيد جازم بأن ما يأتى به هو قرآن يبين الحق ، ويهدى إلى سواء السبيل ليذكر أولوا الألباب، وقد استخدم أسلوب الحصر فنفى أن يكون أى شىء مما عرفه البشر ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾

وفى الآيات رقم خمسة يدعى الكفار والمشركون على الرسول عليه السلام ، صفة الجنون زيادة على الشاعرية ويعود القرآن من جديد إلى نفى الادعاء بالمنطق الواضح والحجة البينة ﴿ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ ثم تتوالى التهم فنجد الكهانة بالإضافة إلى الشاعرية والجنون ، ويأتى النفى صريحا قاطعا ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ .

ولا تتوقف الافتراءات بل تزداد ، فيكون السحر والكذب : ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾(1) ولم يكن كفار مكة ومشركو قريش هم أول من افترى على الرسل تلك

---

(1) سورة ص، آية ٤

الصفات ، لقد حكى الله جل شأنه عن تكذيب الكفار لأنبيائهم منذ إبراهيم وموسى وصالح ونوح - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾(١) .

إن الجوهر في هذا النفي ، والهدف الأسمى منه هو إثبات نبوة محمد عليه السلام ، وكونه رسولا من عند الله ، فلا هو شاعر ولا ساحر ، وليس بكاهن ولا مجنون ، إنه رسول الله ، وهذا التأكيد على نفي جميع الصفات غير صفة النبوة والرسالة هو في نفس الوقت إثبات للوحي ، وأن ما جاء به قرآن تلقاه عن ربه بطريق جبريل عليه السلام .

فليس في نفي الشاعرية غض من شأن الشعر ، أو تقليل لقيمة الشعراء ، فلقد كان ، عليه سلام الله أميا ، ومع ذلك رفع الإسلام العلم والعلماء إلى أعلى الدجات .

وقد فسر « ابن رشيق » الآية قائلا ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ معناها : ما الذي علمناه شعرا ، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعرا . ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غض من الشعر ، لكانت أميته غضا من الكتابة ،(٢) ولو تروّى المشركون قليلا لما اندفعوا إلى وصف النبي الكريم بالشاعرية ، فهو لم يؤثر عنه نظم الشعر أبدا قبل البعثة أو بعدها ،

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٢

(٢) العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ٣١ من قراءة في الأدب الاسلامي والأموي : د . عبد العزيز الموافي ص ٧

كان يسمعه فقط ولكنه لا ينشده ، وحين يريد الاستشهاد بشيء منه ، كان يطلب من أحد الصحابة قوله ، أو ينشده بعد تغيير ترتيب الجمل والكلمات حتى يختل وزنه ويفقد خاصيه الشاعرية .

وقد حاول بعض الدارسين تقصى الحكمة الإلهية فى حفظ الرسول منزّها عن قول الشعر ، فقالوا إنه بعث بين قوم يفخرون بروعة البيان وسحر الشعر ويزهون بالبلاغة ، وكانت معجزة الرسول وبرهان رسالته ـ القرآن ـ معجزة بيان ساحر وبلاغة رائعة ، فلو كان الرسول ينظم الشعر لاختلط نظمه مع القرآن ، والتبس على الناس .

وفى رأيى أن هذا غير لازم لسببين : أولهما أن القرآن لون من البيان يخالف الشعر تماما ، فلن يختلط به ولن يلتبس على قوم تمرسوا قروناً بالشعر وفنونه كعرب الجزيرة .

وثانيهما : أن الله تعالى قد تعهد بحفظ القرآن من التحريف والتزييف ، ومن الخلط والالتباس ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) وكان نزول القرآن بالنص (٢) ومنجما ، وتحفيظ الرسول إياه ، ومراجعته فيه مرة بعد أخرى وتوجيه الله له بالتريث والأناة : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩ (٢) كانت الكتب الأخرى تنزل بالمعنى الذى تتعدد صياغاته فيدخله التحريف والادعاء .

قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾(١) .

وكذلك ذهب البعض إلى أن حكمة نفي الشاعرية عن الرسول تكمن في أنه لو نظمه لوجب تفوقه على الجميع لتكون آية ، وأن يكون له التفوق في نظرهم إلا اذا سار على مقاييسهم في الشعر، من هجاء مقذع ، وفخر كاذب وغزل جارح ، وحديث عن الخمر والميسر، وأوهام وخيالات مضللة ، وكل ذلك يتعارض مع طريق النبوة ومبادىء الإسلام، ولو كان الرسول شاعراً لظن الكفار أن بلاغة حجته وجوامع كلمه تأتى له من الشعر وتأثيره ، وسوف يدعون أن بلاغة القرآن وإعجازه البيانى هو من وحى الشياطين الذين يوحون للشعراء أيضاً ، وقد كان نفى الشاعرية عنه كذلك دحضا للظن بأن رسالته خيالات ورؤى ، وأن القرآن شعر من نوع جديد ، وكان نفي الشاعرية عن الرسول ضرورياً لما عرف عن بعض الشعراء من سلوك شائن ، فلا يصح أن يتصف الرسول بصفة تضعه موضع ريبة واتهام .

والمهم في كل ذلك أن النفي لا يتوجه إلى الشعر فى ذاته ، ولكن هدفه تنزيه الرسول عن كونه شاعرا ، لأن الشعر يقوم على التخيل والوهم والمبالغة ، بينما يقوم منهج الرسالة على اليقين وقوة الإقناع ، ووضوح المنطق ، ونصاعة الحجة ، فمنهج الشعر يختلف ويتعارض مع منهج الرسالة بصرف النظر عن اتصافه بالحسن أو القبح .

---

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩

٢ — القضية الثانية : مناقشة الادعاء بأن القرآن شعر . ومن الواضح ارتباطها بالسابقة وتداخلها فيها ، إذ من المنطق أنه ما دام الرسول الكريم ليس شاعراً ، فإن القرآن ليس شعراً ، وبتعبير آخر ، ليس القرآن شعرا ولا يشبه الشعر، لأن النبي الذي بلّغه عن ربه لم يكن ينظم الشعر ، ولا يعرف أساليبه وفنونه .

وقد وردت هذه القضية واضحة بيّنة في الآيات رقم (٦) ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وماهو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾ .

على أن الآيات رقم (١) تتناول القضية أيضاً في قوله تعالى ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ ثم يؤكد سبحانه ﴿ بل جاء بالحق ﴾ .

لقد كان الهدف من نفي الشاعرية عن الرسول الكريم هو إثبات نبوته ، وتلقيه الوحي عن ربه ليبلغه إلى أمته ، ثم إلى البشرية كافة ، وهذا الوحي هو القرآن الكريم ـ كلام الله ـ نقله جبريل ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ فهو ليس تخيلات وأوهام نائم ، كما ادّعوا في الآيات رقم (١) ولا هو قول شاعر أو كاهن كزعمهم في الآيات رقم (٦) ، وهو كذلك ليس سحراً أو أساطير كما تخرصوا في آيات أخر ، ولكنه الحق الذي يتفق مع ما جاء به الرسل السابقون حسب ما تؤكد الآيات رقم (٤) ، ثم هو قول رسول كريم ، مُنزل عليه من رب العالمين كما تقطع الآيات رقم (٦). وتنزيه القرآن عن أن يكون شعرا غايته إثبات أنه كلام الله فقط ، ولم

يكن قصده التهوين من قيمة الشعر ، والأمر فى ذلك مثله مثل تنزيه القرآن الكريم عن كونه سحرا ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا الا سحر مبين ﴾ (١) وكذلك نفى ما ادعوه من أن القرآن قول من الشيطان ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ (٢)

وادعى الكفار فيما ادعوه أن القرآن من الأساطير ﴿ واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ (٣) .

ولا مراء فى أن هدف الكفار والمشركين من ادعاءاتهم ، هو تكذيب الرسول - ﷺ ورفض نبوته ، فكان المنطق هو رد القرآن الكريم بتفنيد افتراءتهم وإثبات نبوة محمد الأمين ، وصدقه فيما بلغه عن ربه .

وحول ادعاء الكفار بأن القرآن شعر ، يبدى باحث فاضل ملاحظة تقول « من الغريب أن الرسول الكريم الذى لم يكن يعلم الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس شعراً ، على حين أن أهل مكة الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمعونه أو يروونه ، ظنوا بأن هذا الوحى كان شعرا ، وكان المتوقع عكس ذلك - انظر دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوى (٤) ونرد على تساؤله فى نقطتين :

---

(١) سورة سبأ ، آية ٤٣ (٢) سورة التكوير ، آية ٢

(٣) سورة النحل ، آية ٢٤ (٤) قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى ، د . عبد العزيز الموافى ، ص ٦ الهامش .

(١) لا أظن أنه من الصواب القول عن عربي عاش في مكة أيام الجاهلية «لم يعلم الشعر» إلى الدرجة التي لا تمكنه من التمييز بينه وبين فنون القول الأخرى، والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد سمع الشعر طوال حياته، وكان يعجب بالجيد منه ويستنشده، ويفاضل بين الشعراء. حقيقة أن المفاضلة قد تكون على أسس خلقية ودينية غالبا، لكنها لا تخلو عن معايير فنية أيضا بدليل أنه حين أراد اختيار شاعر مسلم للرد على هجاء قريش له، استمع إلى «عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت»، وفضل اختيار حسان رغم تساوي الثلاثة في اعتناق الإسلام، والإيمان بقيمه والاستعداد للدفاع عنه وعن رسوله عليه السلام، فلا شك أنه وجد في حسان مقدرة فنية، وتمكناً من أدوات الشعر، يؤهله للنجاح في أداء المهمة أكثر من رفيقيه، أما قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر﴾ فلا يعني بالتأكيد - جهل الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالتفريق بين الشعر وغيره، وإنما يعني أن الرسول لا ينظم الشعر ولا يمتلك الموهبة.

(٢) وكون الكفار يظنون أن القرآن شعر، تعبير غير دقيق؛ لأنهم في قرارة نفوسهم متأكدون أن القرآن ليس شعرا، وإنما أرادوا بهذا الادعاء إثارة غبار الأكاذيب حول النبي الكريم، وحول القرآن مكابرة وعنادا، وشغلاً للناس عن قضية الإيمان بالدين الجديد بقضايا فرعية، فهم لا يظنون ولا يلتبس عليهم أمر القرآن وكونه ليس شعرا، ولكنهم يدعون ويكذبون، بدليل ادعائهم بأنه سحر وأساطير وخيالات نائم،

وهم حين أطلقوا تلك الافتراءات كانوا قد خططوا لها وتشاوروا فيها ، لقد حكي أنهم اجتمعوا يتداولون أمرهم حول كيفية مواجهة الرسول الكريم ، وتكذيبه ، لصرف الناس عنه وعن رسالته ، فقالوا نتهمه بالكهانة ، فرد الوليد بن المغيرة قائلا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه وبسيطه ، فما هو بالشعر ،[1] ومن ذلك يتبين أن كفار مكة ومشركيها لم يلتبس عليهم الأمر ولا ظنوا أن القرآن شعر ، ولكنه العناد الذى يورث الكفر ، والمكابرة التى تعمى عن الحق ، والجدل الأجوف لا يبغى معرفة الحقيقة أبدا ، وإنما يهدف إلى التضليل والبلبلة .

وفى مجال البلبلة وإثارة الغبار ، ربما تدخل قضية فرعية أخرى هى وجود آيات من الذكر الحكيم على أوزان شعرية معروفة[2] وربما اجتمع إلى الوزن اتفاق الفواصل فى آيات كثيرة ، وهو ما يشبه القافية فى الشعر ، ومن تلك الآيات قوله تعالى :

---

(١) نحو أدب اسلامى معاصر : أسامة يوسف شهاب ص ١١٦

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى : د . محمد عبد القادر أحمد ص ٤٦/٤٧

﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [1]

﴿ هيهات هيهات لما توعدون ﴾ [2] .

﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ [3] .

﴿ ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ﴾ [4] .

﴿ والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ﴾ [5] .

﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ [6] .

وآيات أخرى من هذا النوع ، وقد رد الجاحظ على من يتوهم وجود الشعر فى القرآن قائلا « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم ، لوجدت فيها مثل : مستفعلن فاعلن كثيرا ، وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا . ولو أن رجلا من الباعة صاح : من يشترى باذنجان . لقد تكلم بكلام فى وزن : مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام . وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا »[7] .

ولا ريب أن اشتراك باحثين عرب فى مناقشة هذه النقطة قد يوقع البعض فى الخطأ ، ولكننا يجب أن نفرق بين الهدف التعليمى للباحثين

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٨ (٢) المؤمنون ، آية ٣٦

(٣) الصافات ، آيه ٦١ (٤) الإنسان ، آية ١٤

(٥) العاديات ، آية ١ ، ٢ (٦) المسد ، آية ١

(٧) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٥٤ دار صعب ، بيروت .

العرب ، وهو الذى يسعى إلى رصد الظواهر الفنية فى القرآن الكريم ، وإثبات أنه معجز ، ورغم وجود آيات على بعض الأوزان الشعرية ، إلا أنها ليست شعراً ، وهى تسمو وتتنزه عنه ، والشعر لا يشابهها ولا يدانيها ، فى حين أراد المنافقون والمستشرقون من إثارة تلك النقطة إحياء زعم مشركى مكة وكفارها بأن القرآن ليس وحياً من الله ، وأنه من صنع بشر ، وفيه ما يشبه الشعر ويماثله .

والأقرب للهدى أن ندع مثل هذه المناقشات حتى لا نقع فى الخطأ .

٣ ـ القضية الثالثة : حديث عن الشعراء ، وهو ما ورد فى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ إن الآيات تحدثت عن فريقين من الشعراء : فريق مذموم مغضوب عليه ، لأسباب تتعلق بسلوكه ، وأسلوب حياته ، ولا تتعلق أبدا بموهبة الشعر ونظمه .

وفريق مرضى عنه محمود عند ربه لأسباب تتصل هى الأخرى بالتصرفات ومنهاج الحياة ولا تمس الشاعرية من قريب أو بعيد . وقد ذكر صاحب الكشاف(١) فى أسباب نزول هذه الآيات ، أنها نزلت فى الشعراء المشركين : عبد الله بن أبى وهب ومسافع بن عبد مناف

---

(١) تفسير الكشاف ، جـ ٢ ص ٤٤٠ ، عن د نحو أدب إسلامى معاصر ، ص ١١٧

وأبي عزة الجمحي وأمية بن أبي الصلت ، قالوا نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع إليهم الأعراب يستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم ، ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم » كما يحكى ابن كثير أنه بعد نزول هذه الآيات توجه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى الرسول وهم يبكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هـــذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبي قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقال : أنتم ، ثم قوله تعالى ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ .

قال: أنتم ، ثم أكمل : ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ وقال : أنتم » .

ويعقب أبو هلال العسكرى على هذه الآيات قائلا « واستثناء الله عز وجل فى أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعر إنما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ ، والمصروف من جهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور ، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم ، ولو كان الذم لازما لكونه شعرا لما جاز أن يزول على أى حال من الأحوال »(١) .

وبالرغم من وضوح الآيات فى نصها على المذموم من الشعراء واستثنائها لغيرهم ، لكن البعض قد سارع إلى تصور خاطيء يجعل القرآن معاديا للشعر والشعراء ، ولذلك يشير إليهم « ابن رشيق » قائلا « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى

---

(١) الصناعتين ص ١٣٢ ، نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١٠

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون .. ﴾ الآية فهو غلط وسوء تأمل ، لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا الرسول - ﷺ - بالهجاء ومسّوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يريد شعراء النبى ﷺ ، ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه »(1) .

ومن عجب أن يقع فى هذا الغلط وسوء التأمل مفكر مثل الجاحظ ، له ذكاؤه وبصيرته ، وقدرته على الفهم ، يقول « وقال الله تعالى وقوله الحق ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ ثم قال ﴿ وما ينبغى له ﴾ ثم قال ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فعمّ ولم يخص ، وأطلق ولم يقيد ، فمن الخصال التى ذمهم بها تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ومناسبة أصحاب التشديق »(2) وواصل الجاحظ كلامه مستطردا مطيلا دون إشارة إلى من استثناهم الله عز وجل فى الآية من الشعراء المؤمنين الصالحين والمرضى عنهم ، مما يجعل القارىء يتصور أن الذم للشعراء جميعا ، وهو ما يتعارض وباقى الآية . ولكن الصواب أن نفهم الآية على وجهها الصحيح ، والذى يقسم الشعراء إلى طائفتين :

---

(1) العمدة ، جـ 1 ص 31 ، قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى ص 8

(2) البيان والتبيين جـ 2 ص 572

طائفة المشركين الذين صدوا عن دين الله ، وحاربوا النبي وآذوا المسلمين ، فهاموا بوادي الضلالة واتبعوا سبيل الغواية ، أولئك ساءت عاقبتهم ، وإلى جهنم يحشرون .

والطائفة الثانية هم الشعراء المؤمنون الصالحون الذاكرون الله كثيرا ، الذين نصروا الله ورسوله ، وانتصروا لأنفسهم ممن ظلمهم ، أولئك رضي عنهم ويغفر الله لهم وبالجنة يبشرون . وهذه هي الآية الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء وسلوكهم ، وهي تعالج الأمر من زاوية إنسانية بحتة : كل إنسان ـ شاعر أو غير شاعر ـ إن آمن وعمل صالحا ونصر الله ورسوله ، فله الجنة .

وكل إنسان ـ شاعر أو غير شاعر ـ إذا كفر وصد عن سبيل الله وتعرض بالأذى للرسول والمسلمين ، فله النار وبئس المصير .

خلاصة القول إذن في موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء .

١ ــ لم ينزل في القرآن تحريم واضح صريح للشعر ، ولا ذم له من حيث كونه فنا تعبيريا جميلا ، ولكنه يذم إذا حاد عن طريق الخير والحق ، وكذلك كل شيء .

٢ ــ لا يحوي القرآن الكريم نقدا للشعراء من حيث كونهم شعراء ، ولكنهم كبقية البشر : إن أحسنوا أثيبوا ونالوا المدح والثناء ، وإن أساءوا عوقبوا واستحقوا الذم والهجاء .

٣ ــ نفي شاعرية الرسول مثلها مثل نفي صفات أخرى ، أو تهم أخرى ، بهدف إثبات النبوة وتكذيب المشركين والكفار في ادعاءاتهم .

وليست نيلا من الشعر ، ولا حطا من شأن الشعراء ، إنما إثبات لتلقيه الوحى عن ربه .

٤ — تنزيه القرآن عن كونه شعرا هو إثبات لكونه كلام الله ، ونفى أى صفة أخرى ادعاها المشركون كالسحر والأساطير والتخيلات ، فليس فى هذا التنزيه تحقير للشعر أو غض من قيمته ، هو تنزيه للقرآن عن مشابهة كلام البشر .

والقول الحق هو أن الشعر فى نظر القرآن — كأى نشاط إنسانى — له حدوده وشرائطه التى تتفق مع مبادىء الإسلام وقيمه ، فإن التزم بتلك الحدود ، وراعى هذه الشرائط ، فلم يخرج عن الإطار العام للدين ، وجد مكانه فى المجتمع الإسلامى ، ونما وازدهر بلا محاربة أو نقد . وإن أعرض عن تلك الشرائط وجاهر بما ينافى جوهر الدين ، ويخالف قيمه ومبادئه فلا مكان له ، وهو مطارد مذموم كأى نشاط هدام مخرب .

بقى أن نتعرف على رأى السنة المطهرة ، وموقفها من الشعر ، فهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، وهى مفسرة ومفصلة لما أجمل أوغمض من آياته . وقد حثنا الله جل شأنه على الطاعة التامة للرسول الكريم والأخذ والتسليم بما يحكم ويقول ﴿والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى﴾(١) .

وعلى ذلك فنحن فى استعراضنا لأحاديث الرسول ﷺ — وموافقه

(١) سورة النجم ، آيات ١ ، ٤

من الشعر والشعراء ، نضع في اعتبارنا أنها لا يمكن أن تعارض أو تناقض أو تخالف آيات القرآن في نفس المجال ، واذا بدا في ظاهرها أدنى مخالفة، فالأولى أن نراجع أنفسنا وفهمنا ، ونراجع الرواية ، وكذا بقية الأحاديث والمواقف حتى نصل إلى الحق والصواب وإلى المعنى المراد فعلا .

ثانيا : موقف الرسول ـ عليه السلام ـ قولا وفعلا

سنة النبي – عليه صلوات الله وسلامه – أقوال وأفعال أو هي آراء ومواقف ، أقوال هي ما يعرف بالأحاديث الشريفة ، وقد حفظت ودونت وحققت لتكون مرجعا للأحكام والفتاوى . والأفعال هي تصرفات وأنواع من السلوك صدرت عن الرسول الكريم في ظروف وأحداث فتناقلها الرواة لتكون – أيضا – مثلا يحتذى وهديا يتبع . وسوف نتأمل في هذه الأحاديث أو الأقوال ، كما نستقرىء تلك التصرفات والأفعال حتى نصل إلى الحقيقة .

والسنة المطهرة في موقفها من الشعر والشعراء قد ترحب وتحبذ وتثيب ، وقد تقف محايدة موضوعية فترضى عن الشعر إن أصاب طريق الحق ، وتأباه وترفضه إن ضل وانحرف ، ثم هي قد تعارضه وتطارده لسبب منطقي ودفاعا عن الهدى والدين .

هناك إذن مواقف ثلاثة : كراهة ، موضوعية ، ترحيب . ولنبدأ بموقف الكراهة والمعارضة ، لأن نصوصه قليلة محدودة ، وسوف يفسرها ويرد عليها ما يرد من أحاديث وأفعال في النوعين الآخرين .

أولا : موقف الكراهة ، أقوال وأفعال : عن أبي هريرة .

١ – لأن يمتلىء جوف رجل قيحا حتى يريه ، خير له من أن يمتلىء شعرا (١) .

---

(١) فيض القدير : جـ ٥ ، ص ٢٥ حديث رقم ٧٢١٨

يريه : يلفظه ويخرجه من فيه .

(٢) وفى رواية أخرى « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا حتى يريه ، خير له من أن يمتلىء شعرا »[1] .

(٣) وفى رواية ثالثة « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »[2] .

(٤) وهناك رواية رابعة لنفس الحديث « لأن يمتلىء جوف أحدكم دما أو قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » .

(٥) يروى فى نصين فقط أن رسول الله – عليه السلام – قد نهى عن رواية قصيدة «أمية بن أبى الصلت» فى رثاء قتلى قريش يوم بدر، وقصيدة « الأعشى » التى يرثى بها «علقمه بن علاثة» ، قال البغدادى فى خزانته : ذكر أن النبى – ﷺ – رخص فى الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين : كلمة أمية بن أبى الصلت فى أهل بدر ، وكلمة الأعشى فى علقمة بن علاثة »[3] .

(٦) عن أم المؤمنين – عائشة – رضى الله عنها : قال صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم من هجانى فالعنه ، فكأن كل هجاء هجانة لعنة »[4] .

---

(١) سنن ابن ماجة : كتاب الأدب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤٣

(٣) نحو أدب إسلامى معاصر .

(٤) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣

(٧) حين أسلم «بجير بن زهير بن أبى سلمى» أرسل إليه أخوه «كعب بن زهير» يلومه على تركه دين آبائه، ويتطاول على الرسول الكريم فى شعره، فأهدر الرسول دمه وأباح قتله.

(٨) كذا أثر عن النبى - ﷺ - أنه أهدر دم الشعراء الذين هجوه، واعتدوا على أعراض المسلمين.

(٩) وأمر الرسول بقتل رجل ممن كانوا يهجونه وهرب ابن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى خوفا لهجائهما رسول الله[1].

ولنناقش هذه النصوص والأخبار نقاش العقل والمنطق:

(١) يقول العلامة «المناوى» صاحب فيض القدير «فى شرح الحديث» خير له من أن يمتلىء شعرا، أنشأه أو أنشده لما يؤول إليه أمره من اشتغاله به عن عبادة ربه، قال القاضى: والمراد بالشعر ما تضمن تشبيبا أو هجاء أو مفاخرة، كما هو الغالب فى أشعار الجاهلية.

وقال بعضهم: قوله «شعرا» ظاهره العموم فى كل شعر، لكنه مخصوص بما لم يشتمل على الذكر والزهد والمواعظ والرقائق مما لا إفراط فيه.

وقال النووى: هذا الحديث محمول على التجرد للشعر بحيث يغلب عليه فيشغله عن القرآن والذكر.

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣

عن سعد وأبى سعيد قالا : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ، إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله ﷺ : خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان ، ثم ذكر الحديث السابق »[1] .

كما ورد فى سنن ابن ماجه شرحا للحديث « وقد فسره الفقهاء على أنه المقصود أن يغلب الشعر على الرجل يشغله عن ذكر الله وعن القرآن والحديث »[2] .

وقبل أن نتخذ رأيا فى الحديث نشير إلى أن عائشة ـ أم المؤمنين رضى الله عنها ـ قالت حين سمعت رواية أبى هريرة : لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا ودما ، خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به »[3] .

وبهذا التصحيح من أم المؤمنين ينجلى الحق ، فلا ريب أن السنة النبوية تشرح القرآن وتوضحه ، فلو أخذنا برواية أبى هريرة لكان الحديث مخالفا للقرآن ولأقوال وأفعال أخرى للرسول المصطفى ، أما رواية عائشة رضى الله عنها فتحدد الشعر المذموم ـ هجاء الرسول ـ وهو ما يوافق آى القرآن وما يؤكده الحديث رقم (٦) الذى يلعن من

---

(١) فيض القدير ، ج ٥ ص ٢٥٩ ـ الشرح .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٣) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١١

هجا رسول الله ، وهو كذلك لا يتعارض مع رأى النبي وموقفه ـ ﷺ من الشعر والشعراء عامة ، وبالطبع ينسحب ما قلناه على بقية الروايات الأخرى لنفس الحديث ، وكذا فإن الحديث رقم (٥) يثبت صحة هذا التفسير ، فالقصيدتان المنهى عنهما تخوضان فى أعراض المسلمين وتمجدان الكفر وتهاجمان الدين الحنيف ، ودليل ذلك أن أشعاراً كثيرة لأمية بن أبى الصلت كانت تعجب الرسول عليه السلام ، وأن أشعار الأعشى ـ غير ما ذكر ـ كانت تنشد بلا غضاضة .

بقيت مواقف الرسول ـ عليه السلام ـ ممن هجوه ، حين أهدر دمهم وقتل من بقى على كفره حين ظفر به ، ولا شك أن ذلك يتفق وينسجم مع الحديث رقم (٦) ومع رواية أم المؤمنين للحديث الأول ومع القرآن ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ [1] ودليل ذلك أن من تاب منهم عفى عنه الرسول وأكرمه ، مثل كعب ابن زهير وغيره .

بقى ما ورد فى شرح الحديث الأول عند المناوى من حديث سعد وأبى سعيد عن قول المصطفى حين عرض شاعر ينشد : « خذوا أو امسكوا الشيطان » لم يوضح الراوى نوع ما كان ينشده من شعر ، فلعله كان هجاء مرذولا يكفر صاحبه ، ولعله فحش من القول يستحق قائله الرجم ، وربما كان هياما فى أودية الضلال يجب أن يحارب ، وما كان رسول الله ليقول عنه « الشيطان » إلا لسبب مما ذكر .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧

٢ ــ الموقف الموضوعي المحايد : يحسّن ما كان حسنا موافقا لمبادىء الدين وقيمه ، ويحارب ما كان سيئا منافيا للدين وتعاليمه .

١ ــ عن عائشة ــ رضى الله عنها « الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام » (١) .

٢ ــ ورواية أخرى لنفس الحديث « إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » (٢)

٣ ــ وتقول أم المؤمنين فى رواية أخرى « الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح » (٣) .

٤ ــ ولهذا الحديث رواية رابعة أنه عليه السلام قال « إنما الشعر كلام ومن الكلام خبيث وطيب » (٤) .

٥ ــ لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (٥)

٦ ــ عن ابن عباس « آمن شعر أمية بن أبى الصلت ، وكفر قلبه » (٦) .

---

(١) فيض القدير : ج ٤ ص ١٧٥ ، حديث رقم ٤٩٣٩

(٢ ، ٣) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٠

(٤) نحو أدب اسلامى معاصر ص ١١٨

(٥) فيض القدير : ج ١ ص ٥٧ رقم ١٩

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٤ حديث رقم ١٠٦٧

٧ — عن أبي هريرة « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (١).

٨ — عن النبي ﷺ « ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة »

٩ — امرؤ القيس صاحب « لواء الشعراء إلى النار » عن أبي هريرة وعنه أيضاً « امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار لأنه أول من أحكم قوافيها »(٢)

١٠ — قال يزيد بن مسلم الخزاعي عن أبيه ، عن جده ، قال دخلت على النبي ﷺ – ومنشدٌ ينشده قول شريك بن عامر المطلق :

لا تأمنن ، وإن أمسيت في حرم
إن المنايا تحمّى كل إنسان
والخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي ﷺ « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم »(٣)

١١ — حين سمع الرسول عليه السلام قول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ

قال عليه السلام : « هذا من كلام النبوة »(٤)

(١) نحو أدب اسلامي معاصر ص ١١٨ (٢) فيض القدير ج ٢ ص ١٨٦ (٣ ، ٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٩٨ / ١٠١

(١٢) حين أتى الطفيل بن عمرو السدوسى إلى الرسول ﷺ وأنشده أبياته :

ولا — وإله الناس — نألم حربهم
ولو حاربتنا مَذْحِجٌ وبنو فهم
أسلمنا على خسف ولست بخالد
ومالىَ من واقٍ ، إذا جاءنى حتمى
فلا سلم حتى تحفز الناس خيفة
ويصبح طير كانسات على لحم

فأعرض عنه الرسول الكريم ، لما فى شعره من روح جاهلية تمجد العدوان وتسعى للانتقام وتشفى بالأذى ، ثم وجهه للسبيل الأهدى فقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتين.

(١٣) وعن عبد الله بن رواحة أن النبى الكريم سأله « أخبرنى .. ما الشعر يا عبد الله ؟»

فقال : « شىء يختلج فى صدرى فينطلق به لسانى »
قال « فأنشدنى » : فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

قبلت — لله — ما آتاك من حسن
قفوت عيسى — بإذن الله — والقدر

فقال النبي « وإياك قبلت لله ، وإياك قبلت لله »[1]

لا ريب أن بعض الحيرة ستتملكنا حين نقرأ هذه الأحاديث فنجد الرسول يرفع بعض الشعراء إلى مصاف النبوة ، ويحكم على البعض بنار جهنم ، لكننا لو تريثنا في تفهمها ، واستعنا بالشروح وفسرنا بعضها بالبعض لوصلنا إلى لب الحقيقة .

إن الأحاديث الأربعة الأولى واضحة المعنى : الشعر كأى كلام آخر ، منه الطيب الذي يقبله الرسول ويحثنا على قبوله ، ومنه الخبيث الردىء الذي يدينه - صلوات الله وسلامه عليه - ويحذرنا منه .

والحديث الخامس يرى في الشعر فن العرب الأول ، الذي أجادوه ، وتعلقوا به تعلقا شديدا ، فصار جزءا من طبعهم لا يفارقهم ولا يتركوه ما عاشوا ، وهو قول صادق صحيح ، وفي شرح الحديث رقم (٦) قال الزمخشري عن أمية : كان داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف دهاة العرب ، ومن دهائه ما هم به من ادعاء النبوة ، وكان جلابة للعلوم جوالا في البلاد (وكفر قلبه) أى اعتقد ما ينافي شعره المشحون بالإيمان والحكمة والتذكير بآلاء الله وأيامه ؛ فلم ينفعه ما تلفظ به مع جحود قلبه ، روى مسلم عن عمرو بن الشريد قال « ردفت النبي ﷺ فقال : هل معك من شعر أمية ؟ قلت نعم ، فأنشدته مائة بيت فقال : لقد كاد أن يسلم في شعره » .

أما شرح الحديث رقم (٧) فهو ، وفي رواية « أصدق كلمة قالها شاعر »

---

(١) فيض القدير ج ١ ص ٥٧

وفى أخرى « أصدق بيت قاله الشاعر » ، وفى أخرى « أصدق بيت قالته الشعراء » ، وفى أخرى « أصدق كلمة قالتها العرب » وهذا قريب من قوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . . .

وروى السلفى فى مشيخته البغدادية عن يعلى بن جراد قال « أنشد لبيد النبى ﷺ قوله : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » فقال « صدقت » فقال : وكل نعيم لا محالة زائل » ، فقال « كذبت ، فنعيم الآخرة لا يزول » [1] أما الحديث رقم (٨) ورقم (٩) فيفسران بعضهما ، لقد كان عنترة مجسداً للقيم النبيلة : الشهامة والمروءة والإباء والشجاعة، وكان شعره صورة صادقة لحياته وسلوكه ، فهو يقول ما يفعل ، لا يكذب ولا يتقول ، وهو لا يقول هجاء مقذعا ولا غزلا فاضحا أو أى كلام يؤذى .

وكان امرؤ القيس على النقيض من ذلك : فاحش القول ، إباحى الغزل ، سيء السلوك ، كاذب مدعى .

فلا غرابة أن يحكم النبى على امرىء القيس بقيادة الشعراء من أمثاله إلى النار ، ويتمنى ﷺ لو كان قد رأى عنترة .

أما بقية المواقف من لقاءات الرسول بالشعراء وتعقيبه على أشعارهم بما يفيد الإعجاب والتقدير، فهى تنسجم مع خلاصة الأحاديث السابقة : استحسان ما يتفق مع الدين والخلق القويم ، واستهجان ما يخالفهما .

---

(١) فيض القدير جـ ١ صـ ٥٢٤

الموقف الثالث : ترحيب وإثابة : أقوال وأفعال .

١ — عن كعب بن مالك — رضى الله عنه — قال رسول الله ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه[1] وفى شرح الحديث قال « أراد بالجهاد باللسان هجو الكفر وأهله ، وهذا إلى ظاهر الأخبار أقرب ، ومقصود الحديث أن المؤمن شأنه ذلك فلا ينبغى أن يقتصر على جهاد أعدائه بالسنان ، بل يضم إليه جهاد اللسان ، عن كعب بن مالك قال : لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ماترى فى الشعر؟ قال : إن المؤمن يجاهد . . . الحديث .

٢ — وقال صلوات الله عليه — لكعب بن مالك « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » [2]

٣ — عن أبى سلمة بن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصارى يستشهد أبا هريرة فيقول : يا أبا هريرة نشدتك بالله ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة : نعم » [3]

(٤) وعن البراء — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال لحسان « اهجهم — أو قال هاجهم — وجبريل معك » [4] .

---

(١) فيض القدير : ج ٢ ص ٣٨٦ حديث رقم ٢١٠٤

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤٠

(٣) صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٥

(٤) السابق ج ٨ ص ٤٥

(٥) عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال رسول الله ﷺ « هجاهم حسان ، فشفى واشتفى »[١] .

(٦) وفى رواية أخرى : قال صلوات الله وسلامه عليه : « أمرت عبد الله بن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى »[٢] .

(٧) بعد هجرة الرسول الكريم للمدينة المنورة ، اشتد هجاء الشعراء المشركين ـ عبد الله الزبعرى وضرار بن الخطاب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ـ اشتد هجاؤهم للرسول والمسلمين ، فقال عليه السلام للأنصار « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » فقال حسان : أنا لهـا يا رسول الله ، قال الرسول الكريم « كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ » .

فقال : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . فيقول له الرسول « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك »[٣] .

(٨) وجاء فى العقد الفريد « ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه

---

(١) فيض القدير جـ ٦ ص ٣٥٢ حديث رقم ٩٥٨٤

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٩

(٣) راجع كتاب الحطيئة : د . درويش الجندى ص ٦٤

أعظم جند يجنده رسول الله - ﷺ - على المشركين ، يدل على ذلك قوله لحسان «شن الغطاريف على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام وتخبط يعشى فيه (*) .

«قال والذى بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين، ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال والله يا رسول الله انه ليخيل إلىّ أنى لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه ، فقال النبى ﷺ : أيد الله حسان فى هجوه بروح القدس »[1] .

(٩) وقال ﷺ معقبا على هجاء حسان «لهذا أشد عليهم من وقع النبل »[2] .

(١٠) حين أنشد حسان قصيدته التى يردّ بها على أبى سفيان بن الحارث أمام الرسول - ﷺ دعا له بالجنة مرتين ، فعندما قال :

هجوتَ محمـــداً فأجبتُ عنه

وعنـــد الله فى ذاك الجـــزاء

قال صلوات الله وسلامه عليه « جزاؤك عند الله الجنة يا حسان » .

ولما وصل إلى قوله :

(*) أظن المقصود : وتخبطوا يعشون فيه ، أى بنى عبد مناف .

(١) العقد الفريد ص ١٣٠ ج ٣

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٠

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمـــد منكم وفاء

قال النبي الكريم : «وقاك الله حر النار » .

(۱۱) عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم »(۱) .

أما مواقف الرسول الكريم من إنشاد الشعر ومن الشعراء فهي عديدة يصعب حصرها، ولكننا نستعرض أمثلة منها لاستكمال الصورة .

(۱) يقول جابر بن سمرة « جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت فربما تبسم معهم »(۲) .

(۲) ورد في تفسير القرطبي أن الخليل بن أحمد قال : « كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير من الكلام »(۳) .

(۳) سمع رسول الله ﷺ أمَّ المؤمنين عائشة وهي تنشد لزهير بن حباب قوله :

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه

يوماً ، فتدركه عواقب ما جنى

---

(۱) العقد الفريد ج ۳ ص ۹۹/۱۰۰

(۲ ، ۳) نحو أدب إسلامي ص ۱۱۸

يجزيك أو يثنى عليك فإن من

أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فقال النبى « صدقتِ يا عائشة ،لا شكر اللهَ من لا يشكر الناسَ »(١)

٤ — عن الأصمعى أن رجلا جاء إلى النبى الكريم فقال : (٢)
أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشد :

تركت القيان وعزف القيان

وأدمنت تصلية وابتهالا

وكر المشقر فى حومة

ونثق على المشركين القتالا

أيا رب لا أغبنن صفقة

فقد بعت مالى وأهلى بدالا

فقال النبى — صلوات الله وسلامه عليه : « ربح البيع ، ربح البيع » .

٥ — وجاء فى العقد الفريد أيضا أن النبى ﷺ قال لكعب ابن مالك « لقد شكر الله لك قولك » : (٣)

زعمت سخينة أن تغالب ربها

وليغلبن مغالب الغلاب

(١ ، ٢) — العقد الفريد : ج ٣ ، ص ١٠٠

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠١

٦ — موقف الرسول الكريم من الشاعر كعب بن زهير : كنا قد أشرنا في موقف الكراهة إلى اهدار النبي ﷺ لدم كعب بن زهير بعد ما قاله من شعر يعرض فيه بالإسلام ورسوله ، ومنه هذه الأبيات [1] :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة
فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
شربت مع المأمون كأساً روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته
على أي شيء - ويب غيرك - دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أبا
عليه ، ولم تدرك عليه أخاً لكا

وخاف بجير على أخيه فكتب إليه يحذره لأن الرسول يبيح دم من يهجوه حرصاً على الدين وحماية لأعراض المسلمين .

وأنه لم يبق ممن آذوه سوى هبيرة بن وهب وابن الزبعرى اللذين هربا منه « فإن كانت لك في نفسك حاجة فأقدم عليه ، فإنه لا يقتل أحدا

---

(١) العصر الإسلامي : د . شوقي ضيف ص ٨٤ ويقصد بلفظ المأمون رسول الله ﷺ ، أو أبا بكر رضي الله عنه .

أتاه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج بنفسك ، فلما ورد على كعب كتاب أخيه خاف على نفسه فأعد قصيدته الشهيرة « بانت سعاد » وقدم إلى مكة فذهب لأبي بكر الذي صحبه لمسجد الرسول — وهو متلثم بعمامته — وقال : يا رسول الله هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده الشريفة ، وكشف كعب عن وجهه وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، وأنا كعب بن زهير،فأمنه الرسول واستنشده لاميته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها ، لم يفد مكبول

وبعد الغزل ووصف الرحلة والناقة يشير إلى خوفه :

يسعى الوشاة جنابيها وقولهم

إنك يا ابن أبي سلمى ، لمقتول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم

فكل ما قدّر الرحمن مفعول

وينتقل إلى الاعتذار وطلب العفو من رسول الله :

أنبئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة

القرآن ، فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة فلم

أذنب ، وإن كثرت فى الأقاويل

ويثنى بمدح الرسول والمهاجرين :

إنّ الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أسلموا ، زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف

عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال ، لبوسهم

من نسج داود فى الهيجا سرابيل

« قال كعب بن زهير : فلما ختمت القصيدة رمى علىّ رسول الله — ﷺ — بردة كانت عليه . فلما كان زمان معاوية — رضى الله عنه — بعث إلى كعب بن زهير : « بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف » فوجه إليه الجواب « ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً » . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً ، وأخذ منهم البردة »[1] .

---

(١) شرح التبريزى على بانت سعاد : د . عبد الرحيم الجمل ص ١

وقبل أن ننتقل لموقف آخر ، نشير إلى قصة تتصل بزهير وقصيدته وترويها معظم الكتب ، تقول القصة إن كعبا عرّض بالأنصار في البيت التالي :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
ضرب إذا عرد السود التنابيل

وأن الرسول — عليه السلام — قال له « لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل » ، وقال المهاجرون « ما مدحتنا إذ هجوتهم » فقال كعب أبياتا يمدح فيها الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنب من صالحي الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار

وأرى القصة ملفقة لا يقبلها المنطق للأسباب التالية :

(١) قيل إن تعريضه بالأنصار يرجع إلى تجهمهم له ومحاولة قتله لما بدر منه في حق الرسول ، والمفروض أن هذا قد حدث حين قابل رسول الله ، على حين أن القصيدة معدة ومنظومة مسبقا « فقال قصيدته التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وفيها يقول :

نبئت أن رسول الله أوعدنى

والعفو عند رسول الله مأمول

ثم أتى رسول الله . . . »[1] أى أنه نظم القصيدة قبل اللقاء وهو أمر طبيعى ، فلا يعقل أن يرتجل قصيدة من سبعة وخمسين بيتا فى لحظة اللقاء ، فكيف عرف مقدما أن الأنصار سوف يتجهمونه ويرغب أحدهم فى قتله ، فيهجوهم ؟

(٢) ليس فى البيت أية إشارة إلى الأنصار حتى يعد موجها إليهم فضلا عن أن يكون تعريضا بهم .

لقد بدأ مدح المهاجرين بقوله :

فى عصبة من قريش ...

شم العرانين . . .

لا يفرحون إذا نالت . . .

يمشون مشى الجمال . . .

لايقع الطعن إلا فى نحورهم ...

إنها سبعة أبيات تمضى على نسق واحد ، والضمير فيها للغائبين (هم) يعود على المهاجرين[2]

---

(١) الشعر والشعراء : ابن قتيبة صـ ٧٠

(٢) راجع القصيدة فى ديوان كعب بن زهير أو شرح التبريزى .

٣ — فى شرح الخطيب التبريزى للقصيدة لا يشير إلى مسألة التعريض قط ، وهو يحكى مناسبة القصيدة فى رواية عن كعب نفسه بطريق أبى بكر الأنبارى عن الحجاج ذى الرقيبة بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب[1] فهى ثقة .

٤ — معنى البيت يقول : إن المهاجرين يمشون إلى الحرب فى ثقة وثبات وتؤدة - مثل الجمال - وأن هجومهم على الأعداء وضربهم إياهم يجعلهم فى منعة وعصمة ، فى الوقت الذى يفر ويجبن كل أسود قصير . وصفة السواد والقصر هنا تنصرف للأعداء — ربما الكفار — الذين يفرون .

٥ — أما قول المهاجرين « لم تمدحنا إذ هجوتهم » فقد يكون تحريفا بسبب النسيان أو لغرض فى النفس ، وربما كان القول لم تمدحنا إذ نسيتهم أو تجاهلتهم ، لأنه لم يذكر الأنصار . وأما قول الرسول الكريم « لولا ذكرت الأنصار ... » فهو توجيه نبوى ، لقد آخى الرسول — عليه صلوات ربه وسلامه — بين المهاجرين والأنصار فى كل شىء . فأحب ألا يخص الشاعر فريقا بالمدح دون الآخر ، فيجرح مشاعره ، لذلك يلفته الى استرضائهم كما استرضى إخوانهم المهاجرين .

ونعود لمواقف الرسول من الشعراء :

مع النابغة الجعدى: قدم النابغة الجعدى - أبو ليلى - على رسول الله ﷺ فأنشده :

---

(١) شرح التبريزى ص ١٥

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

فلما وصل إلى قوله مفاخرا :

بلغنا السماء : مجدنا وجدودنا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله النبى: « إلى أين يا أبا ليلى؟ »

قال : إلى الجنة — بك يا رسول الله .

فقال النبى: « الجنة إن شاء الله »

وأكمل إنشاده ، فحين بلغ قوله :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له

بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له

حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال رسول الله — ﷺ — « صدقت ، لا يفضض الله فاك » فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنقص له سن (١) .

(٨) موقف الرسول الكريم من أبى جرول الجشمى: وينقل صاحب

(١) الشعر والشعراء : ص ١٧٧ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٠٠

العقد عن ابن هشام « حدثنى أبو جرول الجشمى وكان رئيس قومه » قال : أسرنا النبى ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله فى حرم

فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها

يا أرجح الناس حلما حين يختبر

إنا لنشكر للنعما إذا كفرت

وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه ، فقال عليه السلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله ، فردت الأنصار ما كان فى أيديها من الذرارى والأموال .

ويعقب ابن عبد ربه — مؤلف العقد — بقوله : « فإذا كان هذا مقام الشعر عند النبى ﷺ فأى وسيلة تبلغه أو تصره ؟ »[1] .

(٩) موقفه — ﷺ — من عمرو الخزاعى :

روى أن عمرو بن سالم الخزاعى قدم على الرسول مستنصراً ، وكانت خزاعة فى حلفه ، فاعتدت عليها قريش — فقال :

---

(١) العقد الفريد ص ١٠٢ .

يا رب إني ناشد محمدا

حلف أبيه وأبينا الأتلدا

قد كنت والدا وكنا ولدا

ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا

وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا

إن سيم خسفا وجهه تربدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا

وهم أذلّ وأقلّ عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعا وسجدا

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمعت عيناه وقال « نصرت يا عمرو بن سالم »(1) . ويكمل صاحب العقد عن ابن هشام « ثم عرض

(1) الأدب في عصر النبوة والراشدين : د . صلاح الهادي ص ٢٢٥

عارض من السماء فقال رسول الله ﷺ : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب ، وتلك الحادثة كانت أحد الأسباب المباشرة لفتح مكة[1] .

(١٠) مع العلاء بن الحضرمى : جاء العلاء يوما إلى الرسول صلوات الله عليه ، فسأله : هل تروى من الشعر شيئا ؟

فأنشده : وحى ذوى الأضغان تسب قلوبهم

تحيتك الحسنى فقد ترفع النغل

فإن حسوا بالكره فاعف تكرما

وإن حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذى يؤذيك منه سماعه

وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فلما سمع هذا الشعر قال قولته المشهورة : «إن من الشعر لحكمة»[2] .

(١١) موقفه من قيس بن الحطيم : «ويروى أبو الفرج خبرا عن أنس بن مالك يقول فيه أن رسول الله جلس فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى واحد ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الحطيم ، يعنى قوله :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب

لعمرة وحشا غير موقف راكب

(١) العقد الفريد ص ١٠٢

(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٢

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ قوله :

أجادلهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ وقال « هل كان كما ذكر ؟ » فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال « والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرمنه . . . فجالدنا كما ذكر »(١)

٢ — موقفه ﷺ من وفد بنى تميم : فى عام الوفود — بعد فتح مكة — قدم وفد بنى تميم على النبى ﷺ ومعهم خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة وشاعرهم الزبرقان بن بدر ، فلما خرج اليهم النبى قالوا : « يا محمد جئناك لنفاخرك . . فأذن لشاعرنا وخطيبنا » فأذن لهم الرسول ولما انتهى خطيبهم أمر ثابت بن قيس الأنصارى فرد عليه ، ثم أذن لشاعرهم الذى قال فى قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا

منا الملوك وفينا يقسم الربع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم

عند النهاب وفضل العز يتبع

إنا أبينا ، ولم يأب لنا أحد

وانا كذلك عند الفخر نرتفع

---

(١) قضايا الشعر فى النقد العربى : د . ابراهيم عبد الرحمن ص ٢٨٨

وحين بدأ شاعر بنى تميم ينشد ، بعث رسول الله إلى حسان - ولم يكن بالمجلس - فحضر وسمع قول الزبرقان فلما قال رسول الله « قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال » وقف فارتجل على نفس الوزن والروى :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم

قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته

تقوى الإله ، بالأمر الذى شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم

أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

إن كان فى الناس سباقون بعدهم

فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

واستمر إلى نهاية القصيدة ، ولما فرغ حسان قال رئيس الوفد - الأقرع بن حابس - : وأبى ، إن هذا الرجل - يعنى رسول الله - لمؤتى له ؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » ولم ينفض المجلس إلا بدخولهم فى الإسلام وتصديقهم الرسول ﷺ »(1)

---

(1) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ١٦٠/١٦٤

(١٣) وحين دخل مكة معتمراً (عمرة القضاء ٧هـ) قدم بين يديه عبد الله بن رواحة، فأخذ بخطام ناقته مرتجزا بأبيات منها[1]:

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير مع رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله

خلاصة موقف السنة النبوية: لو تأملنا الأحاديث السابقة باتجاهاتها الثلاثة، واستقرأنا مواقف الرسول — صلوات ربه عليه — فسوف نخرج بعدة نتائج، توضح وتدعم ما عرفناه قبلاً حين تأملنا آيات الله البينات حول الشعر:

(١) موقف السنة يتسق مع موقف القرآن الكريم، فهى تكره من الشعر ما تضمن هجاء للرسول وحربا على الإسلام ونيلا من المسلمين، وتكره من الشعراء من حاد عن طريق الحق وخالف مبادىء الإسلام وتنكر للخلق القويم.

(٢) أحاديث النهى والكراهة لا تخرج عن ثلاثة: أولها بعدة روايات ومنها رواية أم المؤمنين عائشة وهى تنص على كراهة الشعر الذى هجا الرسول ﷺ.

وثانيها: يلعن من تطاول على الرسول وهجاه.

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين صـ ٢٢٥

وثالثها : ينهى عن رواية قصيدتين تحويان تمجيدا للكفار ، ووعيدا للمسلمين ، وهجوما على الإسلام .

(٣) مواقف الرسول — عليه السلام — المناهضة للشعر أو المهاجمة للشعراء ، لا تخرج عن التصدى لمن حارب الله ورسوله والمؤمنين .

(٤) أدرك الرسول بفطرته السليمة ، وحكمته البالغة ، اعتزاز العرب بالشعر ، وابداعهم فيه وتمسكهم به ، حتى ليوشك أن يكون غريزة فيهم — كحنين الإبل — والرسول عربى ، يتذوق الشعر ويدرك تأثيره فى النفوس ، فليس من المقبول منطقيا أن يقال إنه — صلوات الله عليه — قد حاربه أو نهى عنه ، وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه الرسول ﷺ — واستحسنه ، وأمر به شعراءه [1] ولكن المتوقع أن يقوم هذا الفن ويهذبه .

(٥) التف حول الرسول الكريم جماعة كبيرة من الشعراء المؤمنين بعضهم كانت له صحبة ورواية ، فهم من حفظة الحديث النبوى ورواته ، وبعضهم شرف بالصحبة وحدها . ومن الأولين ، الصحابة الأجلاء رواة الحديث [2] حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعدى بن حاتم الطائى ، وعباس بن مرداس السلمى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .. وغيرهم .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٥٣

(٢) راجع : دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣/٤٤

وممن لهم شرف الصحبة دون الرواية : أحمد بن زهير ، ولبيد بن ربيعة ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبعرى . . وغيرهم : فكيف يفسح الرسول فى مجلسه للشعراء ويسمح بالرواية عنه ، إن كان يكره الشعر أو يعرض عن الشعراء ؟

(٦) من الأحاديث الواردة عن « عنترة وامرىء القيس وأمية وطرفة » ثم من المواقف العديدة للرسول المصطفى مع شعراء آخرين يتضح جليا «أن الرسول لم يكن يرفض الشعر بعامه ، ويعرض عن الشعراء أجمعين ، فقد رأيناه يقبل علي ما حسن ، ووافق الحق من الأشعار ، ولم يتضمن ما ينافى روح الإسلام وتعاليمه وآدابه ، واشتمل على العظة والعبرة والتذكير والحض على الفضائل وغير ذلك مما يدخل تحت قوله — ﷺ — : إن من الشعر لحكمة »(١) .

(٧) وما دام للشعر تأثيره وقوته ، فلا ريب أن الحكمة النبوية رأت اتخاذه سلاحا للدفاع عن الدين ومناهضة الشرك ، خاصة وقد بدأ الشعراء الكفار بإطلاق سهام ألسنتهم « واختار الرسول حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من الأنصار ليردوا على شعراء قريش، فكان اختياره موفقا لسببين :

الأول أن شعراء المدينة أقدر على قول الشعر من شعراء مكة، والثانى أن شعر الأنصار يعد عهودا ومواثيق منهم للرسول(٢) .

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين صـ ٢٢٧

(٢) تاريخ الشعر العربى : د . عبد العزيز الكفراوى جـ ١ صـ ٣١

(٨) ولم تقتصر نظرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الشعر على اعتباره فنا من الفنون يستحسن الحسن منه، ويستهجن القبيح، بل كان عليه السلام يرّغب فيه بالحث على روايته واستنشاده ، ويسمع لأصحابه في مجالسه ، ويبدى آراء نقدية صائبة فيما يسمع ، ويثيب على ما يعجبه ، ويردّ من أخطأ، ولو رجعنا إلى موقفه مع النابغة الجعدى ، ولبيد ، وكعب بن زهير ، ومع السدوسى ، ثم مع رواة شعر قيس بن الحطيم ، فسوف نجده يرحب ويعجب بكل شعر تضمن الدعوة إلى خلق كريم ، أو أصدر حكما صائبا على فعل وسلوك ، ولكن الرسول بحسه المرهف ، وحكمته السديدة ، كان يعرض عن ذلك الشعر الذى يشيد بقيم جاهلية ، أو يخوض فى الأعراض ، أو يوقظ كامن الفتن والضغائن ، أو يتباهى بروح الخيلاء والفخر بالأحساب والأنساب .

ولو كان الرسول يكره الشعر ، أو لا يعرفه حق المعرفة ، ما كان ليعقد تلك المجالس الأدبية لروايته وإنشاده ، ويسمح لشعرائه بالرّد على شعراء الوفود أو شعراء قريش .

وماكان ليرى فيه سلاحا مكملا لأسلحة القتال ، وما كان ليبدى تلك الآراء الصائبة ، ويظهر ذلك الإعجاب الصادق ، ولا كان يستجيب لمن اتخذ الشعر وسيلة للاعتذار وطلب العفو ، بل الافتداء من الأسر .

فالرسول إذن - مهتديا بالقرآن - لا يرفض الشعر جملة ولا يُنحّى الشعراء جميعا ، إنما يقبل ما وافق الحق والدين .

ثالثا : موقف الصحابة والراشدين

أظن أن موقف الإسلام من الشعر يزداد وضوحا واكتمالا حين تتعرف على آراء ومواقف صحابة رسول الله - ﷺ - وخلفائه الراشدين، فهم متبعون لسنته، مسترشدون بهديه عليه السلام، ورأى الجماعة من الصحابة والخلفاء وأوائل التابعين، يعتبر مصدرا ثالثا للتشريع بعد القرآن والسنة.

يطالعنا فى البداية قول أنس بن مالك - رضى الله عنه «قدم علينا رسول الله ﷺ - وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر، قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا» (1)

وجاء فى البيان والتبيين: «وعامة أصحاب رسول الله ﷺ، قد قالوا شعرا قليلا أو كثيرا، سمعوا واستنشدوا» (2).

وسئل الحسن البصرى: أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون؟ قال نعم، ويتقارضون القريض، وهو الشعر» (3).

وروى عن أبى سلمة قوله: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين؛ كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شىء من دينه، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون» (4)

الخليفة الأول: أبو بكر الصديق كان رضى الله عنه يستنشد الشعر

---

(1) العقد الفريد: جـ3 ص103 (2) البيان والتبيين جـ1 ص153

(3) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص 290

(4) المرجع السابق صـ 290

ويتذوقه ، ويبدى فيه آراء صائبة ، ويستشهد به فى خطبه. كذلك فقد خاض حروب الردة دفاعا عن الإسلام ، واستتابة للمرتدين حتى يفيئوا إلى أمر الله ، فكانت تلك الحروب ذات تأثير على نهضة الشعر الإسلامى حيث واكب اللسان معركة السنان ، وانطلقت سهام الكلمات لتصيب المرتدين فى الصميم .

ومن آرائه التى تدل على دراية بالشعر قوله عن النابغة «هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا »(١)

وحدث أن جاءه مال من البحرين فقام بتوزيعه على المسلمين بالتساوى وغضب الأنصار لذلك ؛ فقد كانوا يتطلعون إلى أن يزيد عطاءهم ، لما لهم من سابقة فى مناصرة الرسول ومؤاخاة المهاجرين ، فخطب فيهم الصديق ، وذكر فضلهم وأثنى عليهم ، متمثلا بأبيات طفيل الغنوى التى يقول فيها : (٢)

جزى الله عنا جعفرا حين أذلقت

بنا نعلنا فى الواطئين فزلت

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤١

(٢) الابيات من كتاب الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ١٨٢ ، وطفيل شاعر جاهلى مات قبل الاسلام بقليل وكان حكيما ثريا فقام بالصلح بين قبيلته وقبائل أخرى متحملا الديات .

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا

تلاقى الذى يلقون منا ، لملت

هموا أسكنونا فى ظلال بيوتهم

ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وقال سعيد بن المسيب «كان أبو بكر شاعرا وعمر شاعرا وعلى أشعر الثلاثة» (١) وهو يقصد أن كل واحد منهم لا بد قد نظم بضعة أبيات فى مناسبات مختلفة .

الخليفة الثانى : الفاروق عمر : أما الخليفة العادل فله مع الشعر والشعراء مواقف عديدة مشهورة ، وله فيه وفيهم أقوال حكيمة مأثورة ، كان يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، ويستنشدهم ، ويبدى آراء فيما يسمع ، وكثيرا ما كتب لولاته على الأمصار يسألهم عن الشعراء وما نظموه من جديد الشعر ، ويروى أنه ربما سهر الليالى يصغى إلى الشعر حتى إذا حان وقت الفجر طلب تلاوة القرآن .

آراؤه فى الشعراء : كان يفضل زهير بن أبى سلمى ، معللا تفضيله بما يعكس تذوقه للشعر ، وعلمه بمقوماته ، يقول «كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشىّ الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ صـ ١٠٣

فيه . »(١) وربما عكست الجملة الأخيرة حرصه على آداب الإسلام الذى يدعو إلى القول الصادق ، وينهى عن النفاق والمراءاة .

وقال لوفد غطفان حين سمع قول النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله ـ للمرء ـ مذهب

قال : « هو أشعر شعرائكم »(٢)

ولأن زهيراً اشتهر بمدح هرم بن سنان ، فقد طلب الفاروق من أحد أولاد هرم ذات مرة : أنشدنى بعض ما قال فيكم زهير . فأنشده . فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنا كنا نعطيه فنجزل ، فقال عمر ـ رضى الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم »(٢)

وقال رضى الله عنه لابن عباس يوما « أنشدنى لشاعر الشعراء الذى لم يعاظل بين القوافى ، ولم يتبع وحشى الكلام .

قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح »(٣)

---

(١) العصر الجاهلى : د . شوقى ضيف ص ٢٢٦

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٣

(١) المرجع السابق ص ٧٣

أقواله في الشعر : قال لابن له : « يا بني : انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لا يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدّ حقا ، ولم يقترف أدبا » (١)

ومن أقواله « الشعر جذل من كلام العرب ، يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ، ويبلغ له القوم ناديهم ، ويعطى به السائل » (٢).

وجاء في البيان والتبيين قوله « من خير صناعات العرب : الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم » (٣)

وقال أيضا : رووا من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أحسنه ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق ، وتنهى عن مساويها » (٤)

وكتب إلى أبي موسى الأشعري — واليه على البصرة — يقول :

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين صـ ٢٨٨

(٢) العقد الفريد جـ٣ صـ ١٠٢

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٢٨٨

(٤) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي صـ ٤٩

«مر من قِبَلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب» (١)

وروى الجاحظ ، قال «كتب عمر بن الخطاب إلى ساكنى الأمصار: «أما بعد ، فعلموا أولادكم الفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر» (٢)

مواقفه مع الشعراء : كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب مواقف كثيرة مع عدد من الشعراء ، وتلك المواقف لها وجهها ، قد يتسرع المغرضون فيأخذون بأحد الوجهين ، ويلوون أعناق الكلمات كى يثبتوا عداء الخليفة العادل للشعر والشعراء ، ويغمضون العين بإصرار وعمد عن الوجه الآخر للموقف لأنه يهدم رأيهم ، ومن ذلك موقفه مع الحطيئة بعد قصة ترويها كتب الأدب القديمة والحديثة ، هجا الحطيئة رجلا فاضلا سيدا فى قومه هو الزبرقان بن بدر بأبيات منها :

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا
ذا حاجة ، عاش فى مستوعر شاس

جاراً لقوم أطالوا هون منزله
وغادروه مقيما بين أرماس

ملوا قِراه وهرّته كلابهم
وجرحوه بأنيـــاب وأضراس

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين صـ ٢٨٩

(٢) المرجع السابق صـ ٢٨٨

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها

واقعد ، فأنت الطاعم الكاسي

فشكاه إلى أمير المؤمنين الذى قال بعد أن سمع الأبيات « ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ قال : إنه لا يكون فى الهجاء أشد من هذا »[1] .

وأرسل «عمر» إلى حسان بن ثابت يسأله، فقال «لم يهجه ، ولكن سلح عليه ، فحبسه وقال « يا خبيث ، لأشغلنك عن أعراض المسلمين». فاستعطفه الحطيئة وهو فى الحبس بأبيات يذكر فيها أولاده الصغار :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ

زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة

فاغفر عليك سلام الله يا عمر

أنت الأمين الذى من بعد صاحبه

ألقى إليه مقاليد النهى البشر

---

(١) المستوعر : مكان صعب غليظ ، الشأس : المرتفع الغليظ الهون : من الهوان، الأرماس : القبور، هرته : نبحته ونهشته. (الشعر والشعراء ص ٣٠٢) .

لم يؤثروك بها ، إذ قدموك لهـا
لكن لأنفسهم كانت بهـا الإثر

فدمعت عينا الخليفة وأطلقه آخذاً عليه عهداً بالكف عن الهجاء ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وإلى ذلك يشير الحطيئة بقوله :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع
شتما يضر ولا مديحـا ينفع
وحميتنى عرض اللئيم فـلم يخف
ذمى وأصبح آمنـا لا يفزع

« ومهما يكن من شيء فلقد حوكم الحطيئة هذه المحاكمة العلنية العادلة ، ونال ذلك العقاب المستحق على هجائه للزبرقان ليكون عبرة له ، ورادعا له عن التعرض لأعراض الناس ، وأخذت عليه المواثيق ألا يعود ، وقطع عليه عمر معاذير الفقر بمنحه ثلاثة آلاف درهم ، إن صحت رواية ذلك »[1] .

موقفه مع النعمان بن عدى : كان النعمان والياً على ميسان فى البصرة ، ونظم أبياتا يقول فيها :[2]

(١) الحطيئة : د . درويش الجندى صـ ٩٣
(٢) نحو أدب إسلامى معاصر صـ ١١٧

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها
بميسان ، يسقى فى زجاج وحنتم(1)
إذا شئتُ غنتنى دهاقين(2) قرية
ورقاصة تجثو على كل منسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى
ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا فى الجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك الخليفة عمر قال : « إى والله إنى ليسوؤنى ذلك » ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته » . وكتب إليه بعزله ، فلما قدم عليه « قال : « والله يا أمير المؤمنين ، ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شىء طفح على لسانى» فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلت ما قلت » وواضح أن عقاب أمير المؤمنين كان بسبب جهر النعمان بالمحرمات حتى ولو لم يرتكبها ، ثم تطاوله على الخليفة بما يسوؤه ، وهو - النعمان - كان واليا ، أى قائدا ومثلا لعامة الأمة ، فلو ترك فى منصبه بعد زلته لشجع غيره على الفعل بعد القول، وما كان عمر ليتراخى فى الحق .

(1) الحنتم : الجرة الخضراء .

(2) دهاقين : جمع دهقان وهو القوى صاحب السلطة والمال والخبرة ، الجوسق : كل بنيان عال شامخ .

موقفه مع حسان بن ثابت : روى أن حسان وقف ينشد شعراً في مسجد الرسول - ﷺ - أيام عمر ، فلما سمعه ، أخذ بأذنه وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟! فرد عليه حسان بقوله : دعنا عنك يا عمر ، فو الله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فلا يغير علي ، فيقول له عمر : صدقت ، ... وتنتهي القصة بقول عمر للمسلمين من الأنصار ، إني كنت نهيتكم أن تذكروا شيئاً مما كان بين المسلمين والمشركين دفعا للتضاغن عنكم ، فأما إذا أبوا فأنشدوه واحفظوه ،(١)

موقفه مع لبيد : يعد لبيد بن ربيعة من كبار شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام ، فقدم على رسول الله في وفد من بني كلاب ، وقد حسن إسلامه وتخلى عن كثير من الشعر الذي يأباه الدين ، ولذا قل شعره ، ويقال إن عمر بن الخطاب استنشده بعض ما قاله في الإسلام ، فقرأ سورة البقرة وقال ، ما كنت لأقول شعرا بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران ، فزاده عمر في عطائه خمسمائة درهم ،(٢)

وقد يظن أن الخليفة زاد عطاءه لأنه ترك الشعر ، فكأنه يحض غيره على ذلك ، لكن الحقيقة أن عمر بن الخطاب قد زاد عطاء لبيد لتقواه وحفظه القرآن وليس لتركه الشعر وإلا لزاد في عطاء بقية المسلمين الذين لا ينظمون شعرا .

---

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : ص ٤٩

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠

تأثره بالشعر : « سئل مالك بن أنس : من أين شاطر عمر ابن الخطاب عماله ؟ فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم ، وأن شاعراً كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغزو إذا غزوا
فأنى لهم وفر ، ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفارة
من المسك ، راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته
سيرضون — إن شاطرتهم — منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم »(1) .

« ويروى أن المخبل السعدى جزع جزعا شديدا حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسن وضعف ، فافتقد ابنه ، فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

إذا قال صحبى يا ربيع ألا ترى
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

---

(1) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠٢

ويخبرني شيبان أن لن يعقني

تعق إذا فارقني وتحوب(1)

فرقّ له عمر، وكتب إلى سعد يأمره برد شيبان إلى أبيه ولم يزل عنده حتى مات . . . . وقد فزع إليه أيضا أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلابا

كتاب الله إن حفظ الكتابا ؟

إذا هتفت حمامة بطن وَجٍّ

على بيضاتها ، ذكرا كلابا

تركت أباك مرعشة يداه

وأمك ما تسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه . وممن فزع إلى عمر أيضا في ذلك أبو خراش الهذلي حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أب هرم إلا بعد أن يأذن له راضيا بهجرته (2) وكل ذلك يدل على تقدير الخليفة العادل

(1) تحوب : تخطيء وتأثم

(2) العصر الاسلامي : د . شوقي ضيف ٥٦ ، ٥٧

للشعر والشعراء وتأثره بالأبيات يرسلها الرجل بين يدى حاجته - كما عبر هو .

أما ما يثار من شبهات حول موقفه من الحطيئة ثم من لبيد وما يقال من أنه غضب على أبي موسى الأشعرى ولامه لأنه كافأ الحطيئة لمدحه إياه ، وادعاء أنه أنقص خمسمائة درهم من عطاء الأغلب العجلى لقوله حين سئل عن شعره(١) :

لقد سألت هينا موجودا   أرجزا تريد أم قصيدا ؟

فهو نوع من التحامل أو متابعة لآراء غير دقيقة وروايات ناقصة ، وقد عرفنا حقيقة موقفه مع الحطيئة ، ويكفى أنه أخرجه من السجن بعد أبياته عن أولاده ، وأعطاه ما يغنيه عن السؤال بالمدح والاسترفاد بالهجاء ، كما فهمنا سر تصرفه مع لبيد الذى عرف عنه الكرم وإطعام الناس وقت الصبا ، وهى ريح شديدة البرودة ، تمنع الناس من السعى لمعايشها . ولومه لأبى موسى إنما كان حرصا على مال المسلمين من أن يبدد طمعا فى الثناء والمديح .

وإنقاص عطاء الأغلب لا يرجع قطعا إلى كتابة الشعر ، فلابد أن بقية القصة تعطى تفسيراً للأمر ، والشعراء فى عهد عمر - رضى الله عنه - كانوا كثيرين ولم نسمع عن إنقاص عطاء أحد آخر غير الأغلب .

---

(١) تاريخ الشعر العربى ج ١ ص ٥٨

عثمان بن عفان : تتفاوت آراء الدارسين في الخليفة الثالث تفاوتاً كبيراً ، فبينما نجد الدكتور عبد العزيز الكفراوي يقول عنه بعد اتهام عمر بن الخطاب بكراهية الشعر : «ولم يكن عثمان وعلي من بعده أقل منه سخطا على الشعراء وكراهية للشعر ، فقد ذكر الشماخ أن خوفه من عثمان وتنكيله بأمثاله هو الذي كان يمنعه من أن يمزق جلود أعدائه وذلك حيث يقول [1] للربيع بن علباء السلمي :

لولا ابن عفان ، والسلطان مرتقب

أوردت جلـــدا من العلباء جلمودا

على حين يقول الدكتور درويش الجندي : «وما يكاد عهد عمر ينتهي بسياسته الحازمة الصارمة ، ويأتي عهد عثمان بسياسته اللينة اليسيرة حتى نرى الحطيئة يتنفس الصعداء» [2] ثم يحكي عن مدح الحطيئة الوليد بن عقبة ـ والي عثمان على الكوفة ـ وكان ضعيفاً في دينه، يشرب الخمر ، ويلهو مع أصحابه بالغناء حتى الصباح ويذهب للصلاة سكرانا ، فلما أقيم عليه حد الشراب ، دافع الحطيئة عنه ومدحه [3] .

ولكن شواهد أخرى ، وكذا منطق الأمور ، تنبىء عن أن الخليفة الثالث قد سار على نهج سابقيه ، فترك الشعراء ماداموا ملتزمين بتعاليم الإسلام ، وتعرض لهم حين تهجموا على القيم ، واعتدوا

(١) تاريخ الشعر العربي : ص ٥٨

(٢) الحطيئة : ص ٩٧

(٣) نفس المرجع ص ٩٨

بألسنتهم على الحرمات . ومما قاله الشماخ يدل على أن عثمان بن عفان — رضى الله عنه — قد اشتد على الهجائين وحاربهم ، حفاظا على القيم الأخلاقية وحماية للأعراض، ويؤكد ذلك ما روى عن قصته مع ضابىء بن حارث البرجمى ، وهو شاعر من بنى غالب بن حنظلة ، وكان قد هجا قوماً هجاء سوء وفحش ، فشكواه إلى الخليفة « عثمان » الذى حبسه إلى أن مات (١)

على بن أبى طالب : أما الخليفة الرابع - ابن عم رسول الله والذى شهد له سعيد بن المسيب أنه أشعر من أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فقد حفظت كتب السيرة وكتب الأدب شيئا غير يسير من شعره ، فيقال إنه كان إذا هم بالمبارزة أنشد من نظمه :(٢)

أى يومىَّ من الموت أفرْ
يوم لا يُقدر ، أم يوم قُدِر ؟
يوم لا يُقدر لا أرهبه
ومن المقدور لا يغنى الحذر

ومما قاله من شعره أيضا يوم صفين :

---

(١) الشعر والشعراء : صـ ٢١٨

(٢) العقد الفريد جـ ٢ صـ ١٠٠

أمن راية ســـوداء يخفق ظلها

إذا قيل قدّمها حضين ، تقـــدما

فيوردها فى الصف حتى يردهـــا

حياض المنـــايا تقطر السم والدما

جزى الله عنى والجـــزاء بكفه

ربيعة خيرا ، ما أعف وأكرما

وكان المسلمون يعرفون فى على شاعريته ، بدليل أنهم حين اشتد هجاء شعراء الشرك للنبى وصحبه ، ذهبوا الى على وقالوا له : « اهج عنا القوم الذين يهجوننا» فقال : « إن عليا ليس عنده ما يراد فى ذلك »[1] وهو لا يقصد بالطبع ضعف المقدرة الفنية وملكة الشعر ، ولكنه تحرج من قول الهجاء ـ خاصة فى قريش وهم قومه وقوم رسول الله ـ أو ربما كان لا يقول شعر الهجاء عامة ، فليس كل شاعر قادراً على جميع فنون الشعر .

وكان يفضل من الشعراء امرأ القيس ويقول « كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة »[2] .

وقد استعان بالشعراء فى معاركه مع بنى أمية لإثارة الحماس وتحريك الهمم .

ويروى أن أعرابيا شكا إليه فقره فأمر غلامه ـ قنبر ـ أن يعطيه

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١

حلة ، فمدحه بقوله :(١)

كسوتنى حــــلة تبلى محـــــاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثنـــاء ليحيى ذكر صاحبه
كالغيث يحيى نداه السهل والجبـــلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به
فكل عبد سيجزى بالذى فعـــلا

فقال على: «يا قنبر: اعطه خمسين دينارا، ثم قال له: أما الحلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم». وواضح من هذه القصة أن عليا كرم الله وجهه عرف للرجل قدره حين قال الشعر فبجله وأعطاه ما يليق بشاعريته . لكن ذلك لا يمنع أن يُوجّه من يحتاج للتوجيه إلى التأدب بآداب القرآن الكريم ، فيروى أنه سمع «جرير بن سهم التيمى» يتمثل بقول «الأسود بن يعفر النهشلى» وهما يمران على مدائن كسرى :

جرت الرياح على محـــلّ ديارهم
فكأنمـــا كانوا على ميعـــاد
ولقـــد غنوا فيها بأنعم عيشة
فى ظل مـــلك ثابت الأوتاد
فإذا النعـــيم وكل ما يُلهى به
يوماً ، يصير إلى بلًى ونفـــاد

فقال على : فلم لم تقل كما قال الله عز وجل ﴿ كم تركوا من جنات

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٨٩

وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾[1] ؟ .

وبعد .. إن ذلك العرض لمواقف الراشدين وأقوالهم فيما يخص الشعر والشعراء يثبت أنهم ساروا على نهج الرسول الكريم وبهدى من القرآن ، فلم يرفضوا الشعر تماما ولم يقبلوه على علاته ، ولا هم عادوا الشعراء جميعا، ولا تركوهم وأهواءهم المتقلبة ، إنما كان الموقف العادل ترحيبا بالطيب ونهيا عن الخبيث ، ثوابا للمحسن وعقابا للمسيء ؛ كان حثا على الخيّر الصالح وزجرا عن الشرّير الطالح، وذلك ما يتفق مع آيات القرآن وأحاديث الرسول ومواقفه صلوات الله وسلامه عليه .

خلاصة موقف الإسلام من الشعر والشعراء : لا ريب أننا بعد هذا العرض المسهب لموقف القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم الخلفاء الراشدين ، نستطيع أن نقول مطمئنين : إن الإسلام لم يعارض الشعر ولم يذم الشعراء ، وإنه ليس من المستساغ عقلا ادعاء أن الرسول ﷺ كره الشعر وأعرض عن الشعراء ، فلا يمكن لدعوة عالمية ترسم منهاجا جديدا للحياة الإنسانية كلها ، لا يمكن لهذه الدعوة أن تسقط الشعر من

---

(١) الآيات من سورة الدخان ٢٥ ، و ٢٦ . والمقصود من توجيه الخليفة ألا يأسى على ضياع ملك الفرس - وهم كافرون - لأن الله أورثه لمن هو خير منهم - المسلمين - .

حسابها ، سواء كان مجالا للإبداع الفنى أو وسيلة للدعوة ، أو سلاحا للجهاد ، وقد مر بنا كيف حث الرسول المصطفى شعراء المسلمين ، ودعاهم إلى جهاد القول وسهام الكلام وسيف اللسان ، وذلك بعد أن فتح شعراء مكة المشركين تلك الجبهة الجديدة لتواكب جبهة الرماح والسيوف .

أما ما ورد من تهديد القرآن لبعض الشعراء ونهى الرسول عن قلة من الشعر أو ضيقه بقليل من الشعراء ، وما عرف - تاريخيا - من مطاردة الخلفاء «كعمر بن الخطاب» أو «عثمان بن عفان» رضى الله عنهما للحطيئة والنجاشى وضابىء ، فإنما كان لما تناوله هؤلاء من أفكار ومعان تنافى الخلق القويم، كما تؤذى الفطرة السليمة ،وتناقض مبادىء الإسلام، وبفضل هذا التوجيه القرآنى والنبوى تخلص الشعر العربى من شوائب الملق والنفاق فى المديح الكاذب ، ومن أدران الهجاء القبيح ونيل الأعراض ، ومن الهيام فى أودية الزهو والخيلاء بالفخر المتعالى ، ومن خدش الحياء فى الغزل الفاحش ، ومن أذى الخلق بوصف الخمر ولعب الميسر ومجالس اللهو والمجون ، إنه التوجيه للشعر وليس كبته ، والقضاء عليه ، وهو التهذيب للشعراء لا خنقهم وتكبيلهم .

ويمكن أن نوجز موقف الإسلام جملة من الشعر والشعراء فى النقاط التالية :

(١) ليس فى القرآن الكريم تحريم قاطع صريح لنظم الشعر ،

وليس فيه تنديد به أو تعقيب له إلا حين يتنكب طريق الهدى ويحيد عن الخلق والدين .

(٢) كذلك لا يعادى القرآن الشعراء ولا يذمهم أو يهددهم إلا إذا انحرفوا عن الحق وأساؤا للغير .

(٣) تركيز القرآن على نفى صفة الشاعرية عن الرسول وصفة الشعر عن القرآن هدفه تنزيه الرسول - ﷺ - عن أن يأتى بما لم يوحى إليه وينزل عليه ، يقول جلّ شأنه فى سورة الحاقة ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ويقول سبحانه فى سورة النجم ﴿ إن هو إلا وحى يُوحى ﴾ وكذلك تنزيه القرآن عن أن يكون كلام بشر ، وإنما ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾[1] .

(٤) تتفق السنة المطهرة مع القرآن الكريم فهى ترحب بالشعر وتفسح للشعراء مكانا ، إذا انبعث من مبادىء الدين والأخلاق ، وابتعد عما يغضب الله ورسوله .

(٥) الأحاديث الواردة فى النهى عن بعض الشعر، ولعنه وكذلك ذم بعض الشعراء ، حددت المنهىّ عنه والمكروه بأنه ما كان متضمنا لهجاء مُقذع أو أذى للرسول والمسلمين أو صد عن سبيل الله .

(٦) سماع الرسول — صلوات ربه عليه — للشعر واستنشاده ، ودعائه لبعض الشعراء وإثابتهم دليل واضح جلىّ على موقف السنّة — وهى تفسر القرآن — موقف الرضى والترحيب .

---

(١) الواقعة ، آية ٨٠

(٧) اتخاذ الرسول للشعر سلاحا جاء بعد أن بدأ شعراء قريش المعركة الكلامية ، ورموا الرسول والمسلمين بسهام القول المسموم ، فهى الضرورة التى تبيح محظورا ، وحين فتحت مكة ، وانتهت المعارك الكلامية كف الشعراء المسلمون عن الهجاء ومنعه الرسول وخلفاؤه.

(٨) سار الخلفاء الراشدون — رضى الله عنهم — على نهج القرآن والسنة فاستمعوا للشعر واستنشدوه ، لكنهم حاربوا الشعراء الهجائين وأخذوهم بالشدة حتى يحافظوا على مبادىء الإسلام ووحدة المجتمع.

فالإسلام — ممثلا فى القرآن الكريم والسنة المشرفة وسلوك الخلفاء — هيأ للشعر مكانا ، ورحّب به فنا إنسانيا مهذبا ، يعبر عن النفس والحياة ، ويدعو إلى الحق والخير والجمال ، كذلك فإن الإسلام شجع الشعراء ، ودعاهم لأداء رسالتهم فى سبيل نشر العقيدة ، وحماية الأخلاق ، وبناء المجتمع ، لكن الإسلام أيضا نهى عن تحول الشعر إلى إيذاء للمسلم فى عرضه ودينه وخلقه ، وطارد الشعراء إذا صاروا حربا على الدين أو الأخلاق ، وحين يمزقون وحدة المجتمع .

رابعا : حالة الشعر فى عهد النبوة والراشدين

يتفرع عن قضية الإسلام والشعر، قضية أخرى ثار حولها الخلاف وتعارضت فيهـــا الآراء ، وهى الحكم على الشعر فى عصر النبوة والراشدين : أكان خاملا ضعيفا ؟ أم قويا نشيطا ؟

وكما وجدت النفوس المريضة ـــ مستشرقين وعربا متفرنجين ـــ مجالا لطعن الإسلام فى موقفه من الشعر ، حين تفصل الأحداث عن ظروفها ، وتبتر النصوص من مواقعها ، كى تغير الحقائق ، فكذلك تجد تلك النفوس مجالا لإثارة الغبار حول أضـــوأ فترات تاريخنا الإسلامى: عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم ، فتدّعى موات الشعر وركوده ، وتوجز الحديث عنها كى تغيم الرؤية .

لقـــد اعتدنا أن نقسم عصورنا الأدبية ، فندمج هذه الفترة الباهرة ، مع فترة حكم الأمويين ، بحجة قصرها « ونكتفى عادة فى مدارسنا بتدريس نص مقتضب لحسان بن ثابت ، ليمثل العصر النبوى ، وآخر لكعب بن زهير ثم نمضى لنستوعب أدبيا ما يمثل جزئيات التاريخ والفرق السياسية الطارئة »(١) وقد لا يستغرق ذلك من الدارسين أكثر من صفحات قليلة ، جلها اتهام باطل للاسلام بأنه خنق الشعر وضيق على الشعراء ، ثم يفردون بقية الكتاب الضخم لعصر الأمويين فى تفصيل لا مزيد عليه .

---

(١) شعر عصر صدر الاسلام : د . محمد عادل الهاشمى ص ٥

والأصل أن نمتن بفترات الخصوبة والانتصار في تاريخنا ونسهب الحديث عنها ، عسى أن نخلق في النشء قـــدوة ومثالا ، ونزيده عزيمة ونضالا .

فكان الأولى استعراض نماذج من الشعر الإسلامي الذي واكب الدعوة مسجلا أحداثها ، متغنيا بانتصاراتها ، مناطحا أعداءها ، وأن نشيد بدور الشعراء في هذه الفترة . على أن بعض الدارسين المعاصرين قد تدارك الموقف فخص عصر النبوة والراشدين بكتب مستقلة(١)

وحين نستطلع رأي مؤرخي الأدب ـــ وهم كثر ـــ حول شعر تلك الفترة فإننا نفاجأ بتعارض الآراء ، وتناقض النصوص ، حتى انوشك ألا نهتدي للحقيقة والصواب .

ويبدو أن القدماء كانوا ينظرون إلى الجزئيات فيحكمون على كل منها منفردة . وجاء المحدثون فأخذوا عنهم نتفاً من النصوص تخدم آراءهم ، فمن قال بضعف الشعر آنذاك وجد ما يؤيده في كلام ابن سلام والأصمعي وابن خلدون وابن قتيبة ، ومن قال بقوته ونهضته عثر ـ أيضا ـ على إثباتات من كلام هؤلاء .

بل سرت عدوى النظرة الجزئية إلى بعض المحدثين ، فوجدناهم

---

(١) مثل الدكتور صـــلاح الدين الهادي : الأدب في عصر النبوة والراشدين .

يذهبون من اليمين إلى اليسار بين صفحة وأخرى (١) .

ومن هنا رأيت الطريق الأمثل أن أعرض جميع الآراء وأناقشها رأياً رأياً ، ثم نتعرف على نماذج كافية - من شعر تلك الحقبة ، نماذج من كل الأغراض التى طرقها الشعراء وقتذاك ، وفى مختلف البيئات العربية ، كى نصل فى النهاية - من المناقشة والاستعراض النصى إلى أكثر الأقوال قربا من الحقيقة ، وإنصافا للاسلام والشعر .

أولا : حجج القائلين بضعف الشعر : تتنوع أدلة وحجج القائلين بضعف الشعر فى عصر النبي الكريم وخلفائه الراشدين ، ولعلنا لا نبعد عن الصواب حين نبدأ بأقوى تلك الحجج فى نظر أصحابها ، وأكثرها دورانا على الألسنة ، حتى يمكن القول بإجماعهم عليها ، وهى الأدلة والحجج المتصلة بالإسلام فى موقفه من الشعر .

وموجز تلك الحجج :

(١) الموقف العنيف الذى وقفه القرآن من الشعر .

(٢) محاربة الرسول والقرآن للشعر .

(٣) تعارض قيم الإسلام مع الشعر الجاهلى ، فقد أبطل أشياء وهذب طبائع ، فكان فى ذلك خنقا للشعر .

---

(١) كتاب تاريخ الشعر العربى للدكتور عبد العزيز الكفراوى صـ ٥٣ يذهب إلى إذكاء الدعوة الاسلامية للشعر ، وفى صـ ٥٥ يرى أن الإسلام حارب الشعر وأحب أن يقضى عليه .

(٤) انبهار العرب بالقرآن وانصرافهم عن الشعر .

ولنبدأ فى تفصيل ما أوجزنا : يطالعنا حول الحجة الأولى قول الأستاذ الدكتور عبد العزيز الكفراوى : « وإنما وقف القرآن من الشعراء هذا الموقف الصريح العنيف لأنهم صدوا عن سبيل الله ، وحاربوا رسوله ، وآذوه فى نفسه وعرضه ، ومن يدوى . . لعل القرآن كان يرى فى الشعر منافسا يشغل بعض الناس عن تمام الانصراف إليه ، فأحب أن يقضى عليه قضاء نهائيا .

هذا هو الموقف العام للقرآن ثم جاءت التعاليم الدينية والروح الإسلامية بتفاصيل وتشريعات تكيل للشعر والشعراء ضربات أخرى غير مباشرة »(١) .

ولست أدرى : أيبغى الأستاذ الباحث من هذا الكلام طمس الحق أم هو يجهله ؟ إن الفقرة الأولى لا تحتاج إلى رد ، إذ أن الدارس قد وقف عند قوله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة . . ﴾ فهو لم يكمل قراءة آية الشعراء حيث يقول المولى عز وجل ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . ﴾ وهل كان أمام القرآن إلا أن يقف هذا الموقف عن حاربوا الله ورسوله ، وصدوا عن سبيله ؟ وهل يعاقب صاحب الجرم إن كان غير شاعر ، ويغفر له إن كان شاعرا ؟ كيلا يتهم القرآن بكراهة الشعر والقضاء عليه ؟

أما الفقرة الثانية التى تتصور أن القرآن ـ لعله ـ رأى فى الشعر

(١) تاريخ الشعر العربى ، جـ ١ ، صـ ٥٥

منافساً ، فهو القول الغريب الذي لم أصادفه عند دارس آخر ، فأى وجه المقارنة بين القرآن - كلام الله ووحيه - وبين الشعر - الذى مهما بلغ من جمال وكمال فإنه كلام بشر ناقص خطاء ؟ ثم أى وجه للمقارنة بين كتاب تشريع ودين للبشرية جمعاء ، حاضرا ومستقبلا ، وبين قصائد تعبر عن حالات نفسية وعاطفية ، فى لحظات محدودة ، مهما تناهت فى قدرتها التعبيرية فإنها خاصة مؤقتة ؟

ثم أين ذهب القرآن بعد ذلك فقوىَ الشعر — حسب رأيه — فى العصر الأموى ؟ ألم يكن باقيا يهدد الشعر والشعراء ؟ وأين ذهبت تعاليم الشريعة ، هل انتهى الإسلام - قرآنا وتشريعا بعد عهد الراشدين ؟

وإذا كان الإسلام قد وجه ضربات غير مباشرة للشعر والشعراء ، فكيف نفسر ذلك الكم الهائل - وسوف يشير إليه الأستاذ نفسه - كيف نفسر ذلك الكم من شعر الحواضر و البوادى فى جزيرة العرب فى صدر الإسلام ، والذى يزحم كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازى وكتب الصحابة ؟

وهناك رأى فى هذا المجال يقول إن نفى القرآن لشاعرية النبى صلوات الله وسلامه عليه ، جعل الناس يظنون أن الشعر من أعراف الجاهلية وتقاليدها ، يحسن التخلى عنه مع بقية التقاليد الأخرى التى حاربها الإسلام .

وهى حجة أسقطها مواقف الرسول وأقواله فى الشعر والشعراء وسماعه للشعر واستنشاده ، وإثابته عليه ، وطلبه من الشعراء المسلمين نظم الشعر الذى ينافحون به عن الدعوة ، ويردون كيد شعراء الشرك . فهل يفعل الرسول كل ذلك ويظن الناس أن الشعر تقليد جاهلى ؟.

وقيل أيضا فى هذا الشأن : إن أعداء الدين قد حاربوه بالشعر ، فلما انتصر الإسلام وعم نور الله ، كرهته العرب — أى الشعر — فتناسوه وامتنعوا عن روايته ، وذلك إن صدق فإنما يصدق على شعر المشركين الذى تعرض للرسول الكريم وللدين ، ولكن ماذا عن الشعر الآخر ؟ .

وأضعف الشعرَ فى رأى آخرين أنه كان قبيل الإسلام قد اتجه إلى الخوض فى العقائد والقول فى الأديان — وذلك يحدث للشعر إذا بلغ الشيخوخة — أى أنه قد هبط مستواه من ناحية ، وصار مخالفا للإسلام من ناحية أخرى .

وما قاله الشعر فى العقائد والأديان فيه نظرات صائبة أقرها الرسول وأعجب بها ، مثل بعض أشعار أمية بن أبى الصلت ولبيد وزهير ، وفيه خرافات وأباطيل عاملها الإسلام كغيرها من القيم الجاهلية المنهى عنها ، وذلك لا يبطل الشعر جملة ، ومسألة هبوط المستوى سوف تناقش فى موضع آخر عند الكلام عن انتهاء عصر الفحول كما قيل .

ثانيا : محاربة الرسول والقرآن للشعر : كان الشعر الجاهلي مجالا لإظهار العصبية القبلية والاعتداد بالأنساب والأحساب ، وقد حارب الإسلام ذلك ، فكان من الطبيعي ألا يشجع الرسول الشعر والشعراء — هكذا يرى الدكتور « درويش الجندي » ، ثم يضيف إشارته إلى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ... ﴾

وأيضا ﴿ وما علمناه الشعر .. ﴾ وإلى قول الرسول ﷺ « لأن يمتلىء جوف أحدكم .. » ويعقب قائلا :

« فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب »(1)

وأظننا قد ناقشنا موقف القرآن والسنة بما فيه الكفاية ، والأستاذ الباحث نفسه يقول « إن الدين لم يكره الشعر على إطلاقه » فلماذا يزور المسلمون إذن عن قرض الشعر وروايته ؟ على كل سوف نرى من خلال استعراض الكم الكبير المتنوع للشعر الإسلامي أنهم لم يتوقفوا عن النظم ، أما الرواية فيثبتها ذلك التراث الشعري الهائل الذي نتداوله .

على أننا نسلم مع الدارس بأن الإسلام قد نهى عن الشعر الذي

---

(1) الحطيئة البدوي المحترف ص ٦٣

يمزق الأواصر ، ويفتت وحدة المسلمين ، لكنه نوع من الشعر وليس كل الشعر .

ويرى الدكتور « محمد عبد العزيز الموافى » أن الاسلام كان لا بد أن يعادى الشعر الجاهلى « بوصفه تجسيدا للقيم الجاهلية التى ارتبط بها ارتباطا عضويا دقيقا ، وصورها تصويرا صادقا بكل محاسنها ومساوئها » (١)

ولأن العرب كانوا يحيون شعرهم وينظمون حياتهم شعرا ، أى أنهم لا يفصلون بين الشعر والحياة ، لذلك فإن الإسلام حين يسعى لتغيير حياة العرب وسلوكهم ، فيجب عليه أولا أن يحارب الشعر الجاهلى باعتباره حاويا للقيم والمثل التى تحكم هذه الحياة وتوجهها .

وقد يفهم من ذلك أن الإسلام منع تداول الشعر الجاهلى وقضى عليه قضاء تاما ، حتى تمكن من تثبيت قيمه الجديدة ، مكان تلك التى يحويها الشعر .

وهو ما لم يحدث قط ، بدليل ما بين أيدينا من تراث الشعر الجاهلى ، ونحن لا نختلف مع الأستاذ الباحث فى أن الإسلام أتى بقيم تعارض قيم الجاهلية التى حواها الشعر ، غير أن وسيلة الإسلام لبث هذه القيم وتثبيتها ، لم تكن بهدم الشعر الجاهلى أو بمحاربته والقضاء عليه ، بل كانت بالإقناع والمثل والقدوة ، ولا ريب أن الاسلام عد

(١) قراءة فى الأدب الإسلامى والأموى ص ١٢

الشعر الجاهلي ميراثاً تاريخياً ، وسجلا لعهد مضى ، نغيّره ولكن لا نمحوه ، نتخلى عنه سلوكا ومعايشة ، ولكن لا نتخلى عنه تاريخا وحضارة .

وحقيقة أن الإسلام طارد كمّا من الشعر ومنع روايته ، حتى نُسي وضاع ، ولكنه شعر المشركين الذين هجوا رسول الله ﷺ ، وتناولوا أعراض المسلمين وصدّوا عن سبيل الله ، وهو ما نظم في سنوات الحروب بين مكة والمدينة .

ويكمل الأستاذ الباحث رأيه «بل إن موقف الاسلام من الشعر مرتبط بموقفه من الحياة الجاهلية ، التي جاء للقضاء على كثير من قيمها فهو إذا حارب قيمة من هذه القيم ، فإنه بالضرورة يحارب الشعر الجـــاهلي المجسد لها»(1) ثم يعدد طائفة من تلك القيم التي حاربها الاسـلام كشرب الخمر والغزل الفاحش والهجاء المقذع والتنابذ بالألقاب ، والمدح طلباً للعطاء «كل ذلك تجسد في كم هائل من الشعر منع الاسلام رواجه وانتشاره»(2)

أترى يقصد الأستاذ الباحث من محاربة الشعر المجسد لهذه القيم ومنع رواجه وانتشاره ، هل يقصد محوه أو نسيانه أم يقصد ألا ينظم الشعراء المسلمون على نسقه وفي موضوعاته ؟

إن كان القصد الأول فهو ما لم يحدث ، لأن الشعر الجاهلي باق

---

(1) المرجع السابق ص ١٤ (2) المرجع السابق ص ١٤

ـ أغانيه ـ رغم تجسيده لتلك القيم والإشادة بها ، وإن كان يقصد ألا ينظم المسلمون مثل ذلك ، فهو ما كان لا بد أن يحدث تلقائيا ودون محاربة من الإسلام للشعر ، فالتغيير الجذري الشامل الذي أحدثه الإسلام ، وتشربته النفوس عن اقتناع عقل ويقين قلب ، ذلك التغيير ، صبغ شعرهم بصبغته ، فأصبح ينبع ويصور هذه القيم الجديدة عفويا بلا إلزام ، اللهم إلا في النادر حين لا يصل الاقتناع إلى العقل أو لا يبلغ إيمان القلب مرتبة اليقين لدى البعض القليل من الشعراء ، فينحرفون عن جادة الطريق ، وهنا يُوجِّههم الرسول الكريم ، أو خلفاؤه الراشدون ، كما حدث في المواقف المروية قبلا .

وإلى هذا الرأي يذهب الدكتور « صلاح الهادي » ، فبعد مناقشة موقف الإسلام من الشعر يعلق قائلا « نخلص من هذا إلى أن الإسلام لم يصرف المسلمين عن الشعر كله ، ولم يشغلهم عن إنشاء ما حسن منه ، أو إنشاده أو سماعه ، وأن الرواية الشعرية لم تتعطل كلها في العهد النبوي »(1) .

لقد نشط الشعر الاسلامي في حواضر الحجاز ـ مكة والمدينة والطائف ـ كما ظل الشعر في البوادي ـ قبل أن ينتشر فيها الإسلام ـ ظل مصوِّرا لحياتها مروِّجا لقيمها وأعرافها . وكان الأستاذ الدكتور « شوقي ضيف » قد سبق إلى هذا الرأي أيضا : « من الظلم للإسلام أن يقال إنه كف العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان ينشد على كل

(1) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٢٢٧

لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خوله »[١] .

وفى مجال التعارض بين قيم الإسلام والشعر الجاهلى وما أدّى إليه هذا التعارض من محاربة الإسلام للشعر يدلى المستشرق « جب » بدلوه : « . . . إن الإسلام والرسول الذى كان له شاعره الخاص به ، حسان بن ثابت ، قد وقفا منذ البداية موقفا معاديا للفن الشعرى ، ذلك أن هذا الشعر كان سجلا للقيم والمثل الجاهلية التى جاء الإسلام للقضاء عليها .

ويقول مرة أخرى « ومن هنا نبعت هذه الحقيقة التى أصدمنا وهى أن ظهور الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا فى أمة الشعراء ، وأن تسجيل الشعر الإسلامى لأمجاد الإسلام - بالقياس إلى أمجاد الماضى فى الشعر الجاهلى - لا يتعدى قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) وحتى هؤلاء الشعراء المعروفون الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية فى الماضى ، قد أمسكوا عن قول الشعر ، فلا يعرف مثلا شعر إسلامى للبيد ، ذلك الشاعر العظيم الذى كان شعره ، كما تصوره معلقته المعروفة ، من خير أشعار الجاهلية جميعا على الرغم من أنه قد عاش بعد إسلامه ما يقرب من ثلاثين عاما »[٢] .

أوشكت - والله - أن أتجاهل هذا النص لما فيه من سوء فهم

---

(١) العصر الإسلامى : ص ٤٦

(٢) قضايا الشعر فى النقد العربى : د . إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٥

ومغالطات وجهل بالحقائق ، ولكنى خشيت أن يطلع عليه بعض الناشئة فيتأثر به أو يتصور صحته ، فلنتتبع المغالطات إن : « جب » يناقض نفسه من البداية حين يدعى عداوة النبى للشعر ، واتخاذه شاعرا خاصا ، فكيف يكون ذلك ؟ أمّا زعم العداوة فقد دحضناه من قبل ، وأما أن الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا ، ففيه ضيق فهم للبعد الزمنى ، لأن الإسلام لا يعنى سنوات البعثة وحياة الرسول ﷺ فقط ، كما لا يعنى سنوات خلافة الراشدين أيضا ، وإنما الإسلام يعنى أكثر من أربعة عشر قرنا منذ ظهوره إلى الآن ، وإذا حدد حكمه بالسنوات الأولى ، أى عشر أو عشرين سنة ، فهى غير كافية طبعا لخلق شاعر فى أى مجتمع ، وليس فى المجتمع الإسلامى وحده ، متى يولد ويتثقف ، ومتى ينبغ شاعرا ؟

وفى القول كذلك جهل بالحقائق الأدبية والتاريخية ، فأين الشعراء المخضرمون الآخرون - غير حسان - كعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير والنابغة الجعدى والأعشى الكبير ، ولبيد وكعب بن مالك والعباس بن مرداس والحصين بن الحمام المرى ، والشماخ بن ضرار ، ومتمم بن نويرة وأبو ذؤيب الهذلى والمخبل السعدى والنمر بن تولب وضرار بن الأزور وأبو محجن الثقفى والبريق بن عياض الهذلى وأمية بن حرثان الأسكر . . وغيرهم ؟ والجميع فى مطلع العهد الإسلامى ، فإذا تقدمنا قليلا وجدنا الرقيات والكميت وابن أبى ربيعة ، فماذا يقول « جب » حينئذ فى الشعراء الإسلاميين ؟

وما قاله عن تسجيل أمجاد الإسلام فى «بانت سعاد» سذاجة وجهل، لأن القصيدة كانت فى أول لقاء بين الشاعر والنبى عليه صلوات الله وسلامه، وكان كعب لا يبغى أكثر من الاعتذار وطلب العفو وإعلان التوبة والاسلام، وقدم بين يدى ذلك ببضعة أبيات تمدح الرسول والمهاجرين، دون أية إشارة لمجد الإسلام، ولبيد له شعر إسلامى ذكره كثير من الدارسين، وبقية الشعراء المعروفين لم يمسكوا عن قول الشعر، وإلا فلمن ينسب هذا الكم الكبير من شعر صدر الإسلام ؟

بقى فى مجالنا هذا مناقشة قول الأصمعى شاع فى كتب النقد وتاريخ الأدب للقدماء والمحدثين، ويدور حول ضعف شعر حسان، يقول: «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت، فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره» وقال أيضا: «شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه فى الإسلام»[1].

ونحن لا نستغرب هذا القول من أحد رواة الشعر الجاهلى المشاهير، وأحد اللغويين أيضا، لقد تمرس بذلك الشعر وتشربه، فتربى ذوقه عليه، وصار لا يحس جمالا إلا فيه، ولا يستمتع بفن سواه، إن ما يصدر به مقولته من أن الشعر يحسن فى حالات الغضب ومواقف الثورة وحدة الانفعال، ويجمل ذلك فى كلمة نكد ثم شر، هذا

(١) المرجع السابق ص ٢٧٢

الكلام يخالف الحكم النقدي الصائب، وهو أن قوة الشعر وأصالته، أو ضعفه وزيفه وكذا جماله وتأثيره، أو قبحه وهوانه، كل ذلك إنما يرجع إلى مقدرة الشاعر وموهبته، وامتلاكه لأدوات التعبير، ثم إلى معاناته الصادقة التجربة ومعايشتها، حتى يستطيع نقل انفعاله لمتلقيه، وسواء كانت التجربة خيِّرة أو شريرة، سواء كان العامل المؤثر في النفس هاجس رحمة وتعاطف، أو كان نزوعا للقسوة وفرضاً للقوة، سواء كان حبا أم كراهية، إقبالا أم إعراضا، ترغيبا أم ترهيبا، وأياً ما كان مصدره: داخليا أو خارجيا، إن المعوّل هو التأثر بهذا العامل والانفعال به، ثم إيصال هذا الانفعال المتلقي بالتعبير عنه تعبيراً جميلا صادقا. وسوف نرجىء الحكم على شعر حسان في جاهليته وإسلامه إلى دراسة مفصلة فيما بعد.

والآن نصل إلى حجة إعجاز القرآن وانبهار العرب به، وهم القوم اللسنون البلغاء، المعتدّون بفصاحتهم وبيانهم «والقرآن أثر فني جميل، بالغ من الرفعة أسمى ما يمكن أن ينتهي إليه أثر في هذه اللغة»(1) لحدث لهم ما يشبه الصدمة أو الإفحام وأثّر ذلك على بلاغتهم التي ظهر مدى تواضعها وضآلتها إذا قيست بالقرآن، ولذا كف البعض عن قول الشعر، أما من واصل عطاءه، فقد جاء شعره في مستوى أقل جودة «لإحساسه بالعجز وشعوره بالضآلة أمام هذا الطود الأشم

(1) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري د. عبد العزيز الكفراوي ص ١١٣

الذي لا تتطاول اليه الأعناق » (١) .

وإلى هـــذا يذهب أيضا الأستاذ نجيب محمد البهبيتي: « فشغلوا بالقرآن ، وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله » (٢) .

ولعل المحدثين قد تأثروا خطى ابن خلدون في قوله « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه » (٣) وقد فات المحدثين تحديد الفترة التي انبهرت فيها العرب ، وسكتوا عن الشعر ، كما حاول ابن خلدون ، وإن لم يكن دقيقا في تحديدها . على كل يمكننا أن نناقش هذه الآراء مجتمعة ، فنسأل : على من يصدق حكم الانصراف عن الشعر ، أو نظمه بمستوى أقل ؟ إن كان على المسلمين فإنه غير جائز ، لأنهم يعرفون أن القرآن وحي إلهي وكلام أنزله الله ، فلا موضع للمقارنة بينه وبين كلامهم ، لقد اعتبروه مثلا أعلى ، يتأثرون به ويقتدون ببلاغته ، ولكنه ليس منافسا يتبارون معه .

---

(١) الحطيئة : د . درويش الجندي صـ ٦٣

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القـــرن الثالث الهجري د . عبد العزيز الكفراوي صـ ١١٣

(٣) مقدمة ابن خلدون : صـ ٥٤٧

ولا وجه لإدخال شعراء المشركين فى القضيـــة لأنهم كابروا فى القرآن أصلا ، وأبوا الاعتراف بإعجازه وإعجاره ، بدليل ادعائهم أنه شعر أو سحر أو كهانة ، وتطاولهم بزعم القـدرة على الإتيان بمثله، بل ومحاولة ذلك ، وجاء التحدى الإلهى رداً على المكابرة ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [1] . ثم إن هذه الحجة لا تتفق وما حفظ عن تلك الفترة من شعر المسلمين والمشركين .

وفى تصورى أن مقصد ابن خلدون هو معالجة الأمر على أنه ظاهرة اجتماعية ، فالجديد يبهر الناس ويشد انتباههم فترة ، يتحيرون فيها بين القبول والرفض حتى يألفوه ويقتنعوا به ، ويسهم فى نسيج عقولهم ويصبح جزءاً من ثقافتهم ، فيتسرب إلى إبداعهم الأدبى . وهذه النظرة قد تفسر عدم تأثر الشعر تأثراً عميقاً بقيم الإسلام ومبادئه فى السنوات الأولى للبعثة ، ولكنها لا تصلح لتبرير القلة أو الضعف .

ويعبر « ابن سلام الجمحى » عن القضية بكلمتى تشاغلت ولهت ، وذلك مكان انصرفوا وسكتوا « فجاء الإسلام فتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت (العرب) عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت

(1) سورة الإسراء : آية ٨٨

العرب بالأمصار ، وراجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير»[1]

ولئن كان النص يعالج مشكلة ضياع الكثير من الشعر الجاهلى ، وسوف نتطرق من ذلك إلى مشكلة الوضع والتزييف أو الانتحال ، إلا أن اتكاء الكثيرين عليه كشاهد على انشغال العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد ، جعل الدكتور شوقى ضيف يرد عليه[2] «أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشغلت بالجهاد ، فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه ، ويرد باحث آخر «فلو كان العرب قد تشاغلوا عن الشعر وروايته وفقد تأثيره على عواطفهم ووجدانهم ، ما أهدر الرسول دم كعب من أجل شعره الذى هجاه به ، وما كان الرسول يكافئه بأن يخلع عليه بردته »[3] .

ونفس الكلام يصدق على مواقف عديدة غضب فيها الرسول ﷺ لشعر ، أو رضى وأثاب عن شعر . وما الغضب والرضى فى هذه المواقف أمر شخصى فقط . ولكنه من أجل الجماعة» فلولا علم الرسول بأثر ذلك الشعر حين يتناقل على الألسنة فى أنحاء الجزيرة ، لما غضب

---

(١) قضايا الشعر فى النقد العربى د. إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٢
(٢) دراسات فى نصوص وأدب العصر الاسلامى ص ٣٩
(٣) نحو أدب إسلامى معاصر : ص ١١٣

أو رضى ، واعتراض قريش طريق الأعشى كلما هم بلقاء الرسول فتثبيطه عن ذلك بمال يغريه أو تهديد يثنيه ، إنما كان خوفا من أن يسلم ، فيصبح شعره قوة فى جانب المسلمين .

لم يكن الجهاد والفتوح شاغلا للعرب عن الشعر ، بل كان من أهم عوامل قوته ، وازدهاره ، كما سنرى فيما بعد .

ثم إننا « يجب أن نفرق بين العمل المادى الذى قد يشغل عنه الإنسان بعمل آخر ، وبين الانفعال الذى لا يمنعه مكان أو زمان ، فحيثما انفعل الشاعر تفجرت قريحته ، وسال لسانه بكلمات الشعر »(١)

وأخيرا . . فإن بعض الدارسين يرى أن الشعر الجاهلى قد بلغ قمة نضجه ، واستنفد كل ما فى أنماطه من إمكانات فنية قبل الإسلام ، فاجتمع فى فترة قصيرة عدد من كبار الشعراء ، وانتهى عصر هؤلاء الكبار فى وقت إشراق النور الإسلامى ، فكان على الشعر أن يختار بين حياة جديدة بأدوات تعبيرية وقيم فنية جديدة ، وبين الإفلاس واجترار ما قال السابقون ، ولكن التجديد يحتاج زمانا حتى يتقبله المبدع والمتلقى . ومن هنا نلاحظ هذا الضعف فى شعر صدر الإسلام ، حتى ينمو جيل جديد من الفحول يرد إليه قوته ويعوضه ما فقد بانتهاء عصر فحول الجاهليين .

والحق أن هذا القول بانتهاء عصر الفحول قبل الاسلام . وأن الشعر الجاهلى بلغ مرحلة الشيخوخة والوهن ، هذا القول نوع من التعميم غير العلمى ، أو غير الموضوعى ، فمن المفروض أن العباقرة

---

(١) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١٣

وكبار الشعراء أو الأدباء لا يظهرون في عام واحد ولا يذهبون كذلك في عام واحد ، قد يتقارب نبوغهم زمنيا ، وقد يتعاصرون ، ولكن ظهورهم واختفاءهم يتم متتابعا أو متلاحقا بحيث لا تخلو ساحة الأدب والشعر تماما من بعضهم ، ربما زاد العدد أو قل في فترة عنه في أخرى ، ولكنهم لا بد موجودون بشكل أو بآخر ، ذلك منطق الطبيعة وسنة الحياة حتى يسلم السابق رايته للاحق وتستمر المسيرة متواصلة حية ، وهو حكم الكون في كافة المجالات الإنسانية وليس الأدب فحسب .

وفي مجالنا خاصة نجد أن الاسلام قد أشرق نوره على الجزيرة وفي الساحة الشعرية أصوات عالية شهيرة ، تتنافس وتتبارى ، مضيفة إلى التراث ، مهيئة الفرصة لأصوات غضة تتلمس طريقها وتقتدى بالكبار ، إننا نجد حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد بن ربيعة والعباس بن مرداس والحطيئة والهذليين ، وغيرهم وقبل أن يبرح هذا الجيل ساحة الشعر ودنيا الناس ، كان جيل آخر من الفحول يتشرب منهم أصول الشعر ، ويضيف من عنده ، ما لم يلحقه السابقون بسبب التطور ، فلو لم يكن في عصر الإسلام عباقرة وشعراء كبار ، لما ظهر هذا العدد الغفير من شعراء عصر بني أمية ، وهم على هذا المستوى الرائع ، والذي فاق الجاهليين كثيرا كمّا وكيفا ، إن السنوات القليلة التي تفصل بين عصر صدر الاسلام ، وعصر بني أمية ، لا تكفي لنبوغ هؤلاء الشعراء ، لو لم يصادفوا أساتذة يوجهونهم ، وكبارا

يرشدونهم ، ومثلا يقتدون بها ، وقد لا يكون التوجيه مباشرا ، أو التعليم فى قاعة الدرس ، ولكنها القدوة والمثال ، والتراث الذى يربّى ويثقف .

ولا ريب أن الإنصاف يقتضينا عرض آراء من قالوا بقوة الشعر وازدهاره فى صدر الإسلام - وفيهم قدماء ومحدثين - وهم قد يستخدمون أدلة القائلين بالضعف على أنها أدلة قوة . إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى ، فإعجاز القرآن مثلا ، حافز للشعراء وقدوة لهم فى الفصاحة والبلاغة ، تجدد أساليبهم ، وتمدهم بأنماط فنية لم تكن معروفة للجاهليين ، والرقة واللين اللذان يشار إليهما فى شعر حسان أو غيره من الإسلاميين ، هما ميزتان ودليلا تطور سوف تتضح قيمتهما حين يتقدم الزمن، وتلتقى بالغزل العذرى، أما المعارك بين الاسلام وأعدائه ، ثم حروب الردة ، وما تبعها من الفتوح ، فقد كانت خيرا وبركة على الأدب عامة والشعر خاصة، ألم تظهر شاعرية قريش ، وتمد الشعر بموضوعات جديدة ، وتفجر طاقة الإبداع عند كثيرين لم يعرفوا بها قبلا ؟

وتبقى القيم الإسلامية الجديدة والتى حزن من أجلها محبّوا الشعر الجاهلى وتساءلوا فى أسف ، فماذا بقى من أغراض الشعر ؟[1]. إنها فى رأى المنصفين طوق النجاة - ليس للحياة العربية فقط - ولكن للعالم

(١) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٥

أجمع ، وليس فى ميدان الدين والمجتمع فحسب ، ولكن فى مجال الشعر والفن عامة . فلنفصل ذلك :

هناك بعض الملاحظات التى توضع فى الاعتبار عند إصدار الحكم بالقوة أو بالضعف على الشعر فى فترة النبوة والخلفاء الراشدين ، وتلك الملاحظات هى :

١ — قصر المدة الزمنية - موضوع الحكم - فهى لا تتعدى أربعين سنة ، وهى مدة أقصر من أن تتيح الفرصة لنبوغ الشعراء الجدد ، أو تأصيل القيم الفنية المستحدثة ، أو حتى إنتاج الكم الشعرى الكافى للحكم ، فى حين أن الشعر الجاهلى موضوع المقارنة قد استغرق ما ئتين أو مائة وخمسين سنة ، أرسى تقاليده ، وقعّد لفنونه ، وتوصل إلى أساليبه التعبيرية وأدواته ، وخاض التجارب العديدة حتى استكشف طريقه ، وكثرت نماذجه وتنوعت ، فسهلت للدارسين عملية التحليل والدرس والحكم ، بل بهرتهم بكثرتها وتنوعها ، فكيف تصح المقارنة ؟ .

٢ — وهناك كذلك ملاحظة هامة : لقد عاش الشعراء الجاهليون حياة تكاد تكون ثابتة بلا تغيير ، وتشربوا قيما لا تتبدل عبر مئات السنين ، وتكيفوا معها وعرفوا طرائق التعبير عنها وتصويرها ، أما الشعراء المسلمون فبعد التحول الهائل فى القيم والعقيدة على يدى النبى ﷺ تلاحقت الأحداث ، من صدام مع الكفر والشرك ، إلى

فتح مبين ونصر مؤزر ، ثم موت الرسول الكريم وما أحدثه من هزة أوشكت أن تذهب بلب أعقل العقلاء ، وما تبعه من نقاش حول الخلافة .

ثم حروب الردة التي زلزلت عقائد ضعيفة، وهزت نفوسا خائرة، وبعدها فتوح الإسلام، فوطيء العربي أراضي كان يستحيل عليه أن يطأها، ورأى حضارات واطلع على ثقافات لم يكن ليراهـــا لولا الفتوح ، والأهم من ذلك أنه عاش تجارب جديدة ، وعانى هموما وشواغل لم يعرفها آباؤه وأجداده ، حركت في نفسه كوامن الإبداع وفجرت ملكاته، وحفزته لتصويرها في الشعر ، ولكنها تحتاج زمنا لتختمر .

٣ — وعلينا أن نراعي أيضاً — قبل الحكم — أن شعر هذه الفترة يضم شعر المسلمين وشعر المشركين ، وأن شعر الشرك قد أهمل وضاع أغلبه ، لما فيه من مساس بالدين والرسول والمسلمين ، فالحكم هنا يصدر على بعض الشعر وليس عليه كله ، وحتى هذا البعض الذي نحكم عليه ، مبعثر متناثر في عشرات الكتب والمخطوطات ، منها كتب الأدب الموسوعية ، وكتب السير والمغازي والتاريخ ، كذا كتب الطبقات والأنساب وكتب الصحابة ، ولذا : فلكي يتسنى لنا حكم صحيح يجب جمع وتصنيف كل هـذا الكم من الشعر ، والدليل على ذلك التوزع للشعر في مطلع العهد الاسـلامي ، هو أن النماذج التي ترد منه في كتب تاريخ الأدب تختلف وتتنوع حسب المصدر الذي أخذ عنه الدارس ، فهذا من السيرة ، وذاك من الطبري ، وغيرهم من الأغاني، وهكذا .

بقى أن نسمع لمن قالوا بالقوة ونتعرف على أدلتهم مفصلة :

١ — يقول ابن خلدون « . . . إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين فى منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان وذى الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية ، فى خطبهم وترسلهم ، ومحاوراتهم للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة فى شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير ، وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم ، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من كان قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة ، وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة »(١) .

---

(١) المقدمة : صـ ٤٣ ، ٤٤

وإلى أثر القرآن على بلاغة العرب تشير الدكتورة «بنت الشاطىء» وهى تشرح مدى اعتزاز العرب بفصاحتهم ، وكيف كان القرآن تشريفا لهذه الفصاحة ، « فهو آية تقدير لبيان العرب ، لم تجىء لتعطيل البيان ، بل لتقر للعرب بشرف القيادة الوجدانية »(١) وفضل القرآن لا يقتصر على كونه قمة فى مجال التعبير ، ودقة الوصف وكمال البلاغة ، أو بقول موجز : إعجاز بيانى ، لكن فضله على الأدب شعرا ونثرا يكمن كذلك فى كونه وحد العرب لغويا حين صهر لهجاتهم فى بوتقة اللهجة القرشية بعد تطعيمها بمفردات وأساليب من اللهجات الأخرى ، وبذا فتحت مجال الذيوع والانتشار أمام الشعر العربى الاسلامى بعد الفتوح ، وكان القرآن الكريم حافظا ومستودعا للعربية أبد الدهر ، ورغم تقلبات الأحداث والأزمان ، فظلت من أقدم اللغات الحية .

٢ — وفى مقدمة المحدثين من مؤرخى الأدب الذين يدفعون تهمة ضعف الشعر الاسلامى ويذهبون إلى الرأى المعاكس ، دكتور « شوقى ضيف » ، ويرى أن من أهم الأسباب التى أدت لنهضة الشعر وازدهاره إبان البعثة وعهد الراشدين ، ما تتابع من أحداث هامة مؤثرة فى الجزيرة ثم فيما حولها وكون الشعر - إسلاميا - قد واكب هذه الأحداث ، فكل حدث وقع أسرع الشعراء بتسجيله وإثبات نتائجه ، يفخرون بما فيه نصر للدين وإعلاء لكلمة الله ، ويندون بأعداء الإســـلام . ففى بداية الدعوة كان الشعر سلاحا فعالا ضد

(١) قيم جديدة فى أدبنا صـ ٨٣

الكفار والمشركين، يرد كيدهم ويدافع عن الرسول ﷺ وعن المسلمين. وفى حروب الردة ، خاض المسلم المعركة بلسانه كما خاضها بسيفه ، فهاجم المرتدين وحمس المجاهدين .

فلما استقرت الدولة وانطلقت قوافل النور والإيمان إلى أفواج الأرض ، رافقهم الشعر يعزف على أوتاره القديمة ويستحدث أخرى جديدة ، وفى فتنة عثمان وفى حروب على ، فى كل تلك الأحداث لم يخفت صوت الشعر معبرا عما يعتنقه كل فريق من رأى « فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون قبله فى الجاهلية ، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الاسلام ظلوا يصنعونه وينظمونه »(1) .

وبعض الدارسين الذين ذهبوا إلى ضعف الشعر الاسلامى لم ينكروا مواكبة الشعر للأحداث ، يقول الدكتور الكفراوى « بل إن كبار شعراء تلك الفترة ، البعيدين عن ميدان المعركة ، لم يفلتوا من جاذبية تلك الثورة الجديدة المنبثقة من الحجاز ، وإن لم يتدخلوا فيها تدخلا مباشرا ، ومنهم الأعشى الكبير الذى مدح الرسول بدالية رائعة »(2).
وقد اعتبر بعض النقاد أن المشاركة المستمرة من الشعراء

---

(1) العصر الاسلامى : ص ٤٣

(2) تاريخ الشعر العربى ج ١ ص ٥٤

فى الأحداث المتلاحقة ، اعتبروها سببا لهبوط مستوى الشعر ، وهو قول فيه نظر ، فالأصل أن هذه المعارك كانت عامل إذكاء للشاعرية، وإثارة المواهب ، ودعوة للشعراء كى يؤدوا دورهم ويبلغوا رسالة الشعر فى نصرة الحق والخير ، وهى مجال للتبارى والاحتكاك بين القرائح . أما الاحتجاج بأن شعر الأحداث ربما غلب عليه طابع المناسبات الوقتية ، واتسم بأسلوب الخطابية والمباشرة ، فإن الرد على ذلك هو أن المناسبة كثيراً ما تصبح مجرد تكأة أو نقطة انطلاق تهيج عاطفة الشاعر ، وتثير وجدانه ، وتفتح أمامه آفاقا جديدة ، ثم إن العرب قد اعتادوا على مثل تلك المبارزات الكلامية منذ جاهليتهم، وهم شعراء بالفطرة والسليقة ، وكثيرا ما يرتجلون ، فليس الأمر جديدا عليهم ، وليس كل شعر المناسبات هابط المستوى أو ضعيف فنيا .

على أن زهو المسلم وهو يحس أنه بشعره ينصر الدين ، ويُعلى الحق ، ويزهق الباطل ، ويجاهد فى سبيل الله ، كل ذلك يحفزه إلى التجويد ويزيد فى طاقة إبداعه .

(٣) ثم يستشهد المعارضون لحكم الضعف على الشعر الاسلامى بكثرة النصوص التى خلفتها تلك الفترة على قصرها ، لقد خص ابن هشام الشعر بباب واسع فى سيرته ، يضم عشرات القصائد ومئات الأبيات وكذلك الطبرى ، ثم كتب الأدب كالأغانى ، وكتب الصحابة كالإصابة والاستيعاب ، جميعها ذاخرة بقصائد ومطولات وقطع

تدحض زعم من قال بضعف الشعر أو خموله «وهو زعم غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق » وبعد رد الزعم يرى الدكتور « ضيف » أن قوة العقيدة فى قلوب الشعراء ورغبتهم فى أن يعم نورها جميع الخلق ، مما جعلهم يتسابقون إلى الاشتراك فى الجهاد ، وجعلهم أيضا يصدرون عن هذه العقيدة فى شعرهم « صدور الشذى عن الأزهار الأرجة »(١) .

ويذهب الدكتور الكفراوى إلى هذا الرأى فى إحدى المرات التى انتقل فيها من المؤيدين لتراجع الشعر ، إلى صفوف المعارضين لذلك ، وإن استعمل فعل الظن « وأظننا الآن ، وبعد أن وقفنا على هذا العدد الضخم من الشعراء الذين وقفوا بجانب الدعوة الجديدة أو ضدها ، نستطيع أن نؤكد ما قلناه سابقا ، من أن تلك الدعوة قد أذكت الشعر واجتذبت كثيرا من الشعراء نحوها »(٢) .

(٤) وهناك دليل جديد على النشاط والازدهار الشعرى فى عهد الرسول الكريم وخلفائه ، وهو نبوغ عدد من الشعراء فى بيئات لم تعرف قبل الاسلام بالشعر ، ولم تهتم به ، وتلك هى الحواضر أو المدن الحجازية كمكة المكرمة والطائف . لقد عاش الجاهليون زمانا والشعر مركز فى البادية ، وليس للحاضرة إسهام فيه ، اللهم إلا بعض الأهاجى

(١) العصر الاسلامى : ص ٥

(٢) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٣

بين الأوس والخزرج فى يثرب ، فلما بعث النبى ﷺ وتصدت له قريش بالإنكار والكفر، ثم هاجر بناء على أس ديه، وتفجر الصراع بين مجتمع الايمان فى المدينة ومجتمع الكفر فى مكة ، وشارك الشعر فى كلا المعسكرين فظهر الشعراء فى مكة أولا ، كما كثر شعراء المدينة ، ثم انضمت إلى ذلك الركب الشعرى حواضر أخرى ، فالمدن والحواضر الحجازية كانت أوثق اتصالا وأسرع تأثرا بدعوة الإسلام ـ تأييدا أو معارضة ـ لقد وفر الاسلام بما أحدثه من زلزلة دينية واجتماعية واقتصادية ، أدت إلى الصراع ـ وهو أهم باعث للشعر ، وهو الثائرة كما عبر ابن سلام ، أو الصدام الفكرى الذى يولد الصراع المسلح .

كذلك اعتمدت مكة من قديم على مكانتها الدينية ، وافتخرت قريش بسدانة الكعبة ، فلما جاء الاسلام ، سلبها هذه المكانة فبحثت عن مجال آخر للمجد والشهرة كانت تهمله من قبل ، وهو مجال الشعر الذى رأت فيه أيضا سلاحا باترا .

ه ـ ولا مراء فى أن الاسلام وما رافقه من أحداث ، سواء فى السنوات الأولى داخل الجزيرة العربية ، أو فيما بعد حين انطلقت الجيوش الفاتحة تكبر باسم الله عبر حدود الجزيرة ، لا مراء فى أن ذلك قد هيأ للشعر أغراضا جديدة ، ولفته إلى ميادين لم يطرقها من قبل ومن حسن حظ الشعر الجاهلى أن الإسلام ـ بما يمثله من قيم أتاح له فرصة ذهبية للتجدد ، حيث أتاح للشخصية الفردية استقلالها

وحررها من داخلها ، وارتقى بها عن الارتكاس فى المادة ، وجعلها تستشرف آفاقا روحية فسيحة وسامية ،[1] ولأننا سوف نذكر تلك الأغراض حين نستعرض النماذج فلذلك نترك تفصيلها الآن .

٦ — وآخر ما يستند إليه دعاة القوة والنماء فى الشعر الإسلامى هو المطالبة بنظرة نقدية جديدة إلى ذلك الشعر ، نظرة تتحرر من معايير الشعر الجاهلى ، وتنطلق من إسار جاذبيته ، نظرة تضع لنفسها مقاييس واعتبارات تنبع من هذا الشعر الذى نتحدث عنه ، ولا تقيسه باعتبارات شعر آخر سبقه ، أيا ما كانت قيمة ذلك الشعر وروعته.

---

(١) قراءة فى الشعر الاسلامى والأموى : ص ١٥

خامسا : نماذج من الشعر الإسلامى

على الرغم من أن الصراع المسلح والصراع الشعرى ، لم يتفجر إلا بعد هجرة الرسول المصطفى ومن آمن معه إلى المدينة، على الرغم من ذلك الا أن نفثات شعرية قليلة صدرت عن البعض ، ومنها ما قاله « عثمان بن مظعون » وقد دفعه أذى ابن عمه - أمية بن خلف - إلى الفرار بدينه واللجوء للحبشة ، ومن هناك أرسل معاتبا على ما بدر منه محذراً إياه من عاقبة البغى (١) :

أتيم بن عمرو للذى جاء بغضة
ومن دونه الشرمان والبرك أكتع

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع

وحاربت أقواما كراما أعزة
وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع

ستعلم إن نابتك يوماً ملمة
وأسلمك الأوباش ، ما كنت تصنع

كذلك تحفظ الكتب المؤرخة لتلك الفترة قصيدة نادرة ، نظمها أحد مؤيدى قريش - أبو قيس بن الأسلت - وقد خاف مغبة

---

(١) تاريخ الشعر العربى ص ٢٩ . الهمزة للنداء ، تيم بن عمرو: هو جمح - جد عثمان وأمية ، الشرم: الخليج أو البحر .

والشرمان هما الخليجان بين اليمن والحبشة ، والبرك اسم لمواضع منها اليمن ، أكتع : أجمع ، تقذع : تلام وتكره .الأوباش : السفلة ، ملمة : كارثة .

النزاع بينهم وبين الرسول ، فنصحهم فى هذه القصيدة أن يسمعوا لصوت الحكمة ، ويعالجوا الخلاف بوسائل السلم والجدل العقلى[1] :

يا راكبـــاً أما عرضت فبلغن
مغلغلة عنى ، لؤىّ بن غالب
وقل لهم — والله يحكم حكمه —
ذروا الحرب تذهب عنكم فى المراحب
متى تبعثوهـــا ، تبعثوها ذميمة
هى الغول للأقصين ، أو للأقارب
تقطّع أرحاماً وتهلك أمـــة
وتبرى السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأتحمية بعدهـــا
شليلا وأصداء ثياب المحارب[2]

(١) المرجع السابق : ص ٢٩/٣٠ ، مغلغلة : رسالة ، المراحب : جمع مرحب وهو المكان الواسع ، السديف : لحم السنام ، الغارب : الكاهل .

(٢) الأتحمية : ثياب يمنية فاخرة ، الشليل : ما يلبس تحت الدرع ، الأصداء : الدروع الصدئة ، الغبر السوابغ : الدروع ، القتير : مسامير الدروع ، الجنادب : الجراد .

وبالمسك والكافور غبرآ سوابغا
كأن قتيريها ، عيون الجنادب

ولكن ، ما إن يهاجر الرسول الكريم والمسلمون إلى المدينة ، حتى يبدأ الصدام بين معسكر الإيمان والتوحيد فيها ، وبين معسكر الكفر والشرك في مكة ، وكان الصدام في ميدان القتال أولاً ، ثم نقلته قريش إلى ساحة الشعر ، حين تطاول بعض شعرائها بالقول على الرسول ﷺ والمسلمين ، وحينذاك استأذن حسان بن ثابت من الرسول في الرد عليهم ، وقيل بل ضاق المسلمون بهجاء المشركين فطلبوا من علي - كرم الله وجهه - أن يدفع عنهم سهامهم ، لكن عليا اعتذر - أو اعتذر عنه الرسول - وطلب المصطفى عليه السلام من الأنصار أن يضيفوا إلى أفضالهم فضلا جديدا فينصروا الإسلام باللسان كما نصروه بالسنان ، وبدأ « حسان بن ثابت » ثم انضم إليه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك » .

ولئن كان الشعر الإسلامي قد بدأ في أول أمره ردا من شعراء الأنصار على المشركين بأغراض محددة ، وفي مناسبات خاصة ، إلا أنه فيما بعد ، ولا سيما حين فتحت مكة وعم الإسلام جزيرة العرب ، اتسع نطاقه وتعددت مجالاته ، وكانت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة بمثابة فتوح شعرية عظيمة الأثر واسعة الأرجاء .

ولنستعرض الآن نماذج من الشعر الإسلامى - دون التعرض لغير المسلمين - حتى يتسنى لنا الاطلاع على هـــذه الصفحات الوضيئة من تاريخ الشعر الإسلامى ، وتحرّى الحقيقة فى مستوى ذلك الشعر : من ضعف أوقوة ، وازدهار أوخمول . ورأيت - تنظيما لهذا الكم من الشعر أن أعرضه بحسب الأغراض أو الموضوعات ، وبذا يأتى العرض شاملا من الناحية الزمنية لعصر الرسول ﷺ ، ثم خلفائه الراشدين ، على أن التتابع التاريخى سوف يتحقق ضمنا حينما نبدأ بالأغراض الاسلامية المبكرة ، مثل مدح النبى الكريم ، وهجاء المشركين ، ورثاء الشهداء فى معارك مكة والمدينة ، وتهديد المشركين واليهود بما أعد المسلمون لهم ، والفخر بالانتصارات الاسلامية .

وتأتى بعد ذلك أغراض جدت فى شعر الفتوح : كالحنين والاغتراب ووصف البلاد الجديدة وشعوبها ... وهكذا .

١ - مدح الرسول صلى الله عليه وسلم : يُعد مدح النبى ﷺ والاشادة به فى مقدمة الأغراض المستحدثة والمجالات الجديدة للشعر العربى ، فعندما أشرق فجر الإيمان كان الرسول المصطفى هو المبلغ لهذه الرسالة السماوية ؛ وكان نبراسا وهاديا ، ومثلا وقدوة ، ومبشرا ونذيرا ورحمة مهداة ، وكان مدحه غير المدح الذى عرفه الشعر فى جاهليته للسادة والملوك ، استعطاء للمال أوطلبا للشهرة والمجد الأدبى ، فيحشد الصفات المحمودة فى مبالغة وتضخيم ، وقد يقول غير الحق ، وقد يمدح بما لم يوجد ، بل كان مدحه - صلوات الله عليه جهادا فى

سبيل الله وقربى إليه سبحانه ، كان دفاعا عن الدين وتأييدا له ، كان اقتباسا من هذا النور واهتداء به ، ومن هنا فقد كانت القصائد المخصصة لهذا الغرض كثيرة عديدة ، وكانت القصائد التي نظمت أصلا لأغراض أخرى ، تحاول أن تشرف بأبيات في مدحه تتناثر خلالها كالعبق الشذى ، وإذا كان الاختيار صعباً - في هذا الكم - بين القصائد والأبيات ، إلا أننا حرصاً على الإيجاز ، نكتفى بأبيات من قصائد لمجرد الدلالة والتمثيل .

- يقول الأعشى الكبير من قصيدة تبلغ أربعة وعشرين بيتا(1):

ألا أيهذا السائلى : أين يممت

فإن لها في أهل يثرب موعدا

فآليت لا أرثى لها من كلالة

ولا من حفى ، حتى تلاقى محمدا

نبى يرى ما لا ترون ، وذكره

أغار - لعمرى - في البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ، ونائل

وليس عطاء اليوم مانعه غدا

أجدك : لم تسمع وصاة محمد

نبى الإله ، حين أوصى وأشهد

---

(1) ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق د . محمد حسين ص ١٣٥

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله

وأنك لم ترصد، لما كان أرصدا

● ويقول عبد الله بن رواحة(1) :

إنى تفرست فيك الخير أعرفه

والله يعلم أما خانني البصر

أنت النبي، ومن يحرم شفاعته

يوم الحساب، لقد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن

تثبيت موسى، ونصراً كالذى نصروا

● وعبد الله ابن الزبعرى الذى تطاول على النبي بالهجاء سنوات وهو مشرك، أصبح شديد الندم على ما قدم حين هداه الله فتاب واعتذر بقصائد عديدة ومدح الرسول مرات كثار منها :

---

(1) شعر عصر صدر الاسلام ص ٩

يا خير من حملت على أوصالها
عيرانة سرح اليدين رسوم

إنى لمعتذر إليك من الذى
أسديت ، إذ أنا فى الظلام أهيم

فاغفر ، فدًى لك والداى كلاهما
زللى ، فإنك راحم مرحوم

وعليك من سمت المليك علامة
نور أغر ، وخاتم مختوم

أعطاك بعد محبة برهانه
شرفاً ، وبرهان الإله عظيم (1)

ومن شعر العباس بن مرداس قوله مثنيا على النبى (2) :

رأيتك يا خير البرية كلها
نشرت كتابا جاء بالحق معلما

ونورت بالبرهان أمراً مدمسا
وأطفأت بالبرهان ناراً مضرما

---

(1) المرجع السابق صـ ٧٥ . عيرانة : ناقة أصيلة ، سرح : لينة رسوم : ثابتة الخطوة ، سمت : دلائل وظواهر .

(2) المرجع نفسه صـ ٧٧

فمن مبلغ عنى النبى محمدا

وكل امرىء يجزى بما قد تكلما

• يقول « حسان » - شاعر الرسول - فى إحدى روائعه التى تعد ردا مفحما على القائلين بضعف الشعر الاسلامى(١) :

أغر ، عليه للنبوة خاتم

من الله مشهود ، يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه

إذا قال فى الخمس المؤذن : أشهد

وشق له من اسمه ليجله

فذو العرش محمود ، وهذا محمد

نبى أتانا بعـــد يأس وفترة

من الرسل ، والأوثان فى الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا

يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا نارا وبشر جنة

وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٤٨

ويقول فى همزيته التى دعا له الرسول بالجنة مرتين من أجلها (١) وفيها ينذر قريشاً ويرد على أبى سفيان :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن أبى ووالده وعِرضى
لعرض محمد منكم وقاء

أتهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء

هجوتَ مباركاً براً حنيفاً
أمين الله شيمته الوفاء

٢ — تمجيد الدعوة الاسلامية ومدح المسلمين الأوائل :

لا ريب أن المسلمين الأوائل — مهاجرين وأنصاراً — أصحاب العزيمة والارادة ، الذين واجهوا الشرك وهو فى أوج قوته ، وعنفوان جبروته، لا شك أنهم أصحاب الفضل الجديرون بالثناء والإشادة فقد حملوا — مهاجرين وأنصاراً — عبء الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين ، ولم يقصّر الشعراء المسلمون فى هذا المجال ،

(١) المرجع السابق صـ ٢٥٣

فلا تكاد تخلو قصيدة إسلامية على عهد الرسول والراشدين من أبيات تمدح الأنصار أو المهاجرين أو كليهما معاً ، وتشيد بدورهم البطولى فى قصر الدعوة ومؤازرة النبى ، ثم تمجد الإسلام وما أفاء الله به على العرب من نعمة الهداية وفضل الرشاد ، ها هو كعب بن زهير فى موقف الاعتذار والتوبة ، يذكر المهاجرين فضلهم ويمدحهم[1] :

فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة ، لما أسلموا : زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ، ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال ، لبوسهم
من نسج داود ، فى الهيجا سرابيل

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
ضرب إذا عرد السود التنابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قوما ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم
وما إن لهم عن حياض الموت تهليل

---

(١) شرح بانت سعاد : ص ٨٦

ثم يستدرك فى قصيدة أخرى ما فاته من مدح الأنصار ، ولهم فضل النصر والمؤاخاة والإيثار على أنفسهم[1] :

مَن سرّه كرم الحياة فلم يزل
فى مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السمهرى بأذرع
كسوالف الهندى ، غير قصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم
يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم
بدماء من علقوا من الكفار
قوم إذا هوت النجوم فإنهم
للطارقين النازلين مقارى

ويجمع حسان فى مدحه بين الأنصار والمهاجرين ، فهم إخوة ،

---

(١) فى الأدب الاسلامى والأموى ص ٣٥

يقول فى رده على الزبرقان بن بدر(١) :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بيّنوا سنة للناس تتبع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

إن كان فى الناس سباقون قبلهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

أعفة ذُكرت فى الوحى عفتهم
لا يبخلون ، ولا يرديهم الطمع

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه ، وما نزعوا

إن قال: سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال: عوجوا علينا ساعة، ربعوا

أكرم بقوم ٍ رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

فإنهم أفضـــل الأحياء كلهم
إن جدّ بالناس جد القول، أو سمعوا

---

(٢) ديوان حسان ص ٢٣٨

٣ — هجاء المشركين رداً على هجائهم : تجاهل المسلمون هجاء المشركين أول الأمر ، فلما تمادوا، وصار السكوت عنهم قد يفسر بالعجز عن إلحامهم ، تصدى لهم شعراء الأنصار ، يقول حسان ردا على أبي سفيان حين هجا النبي(١) :

أبلغ أبا سفيان أن محمــداً

هو الغصن ذو الأفنان، لا الواحد الوغد

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة

فما لك من إصدار عزم ، ولا ورد

وأن سنام المجد من آل هاشم

بنو ابنة مخزوم، ووالدك العبد

وما ولدت أفناء زهرة منكم

كريماً، ولم يقرب عجائزك المجد

وكنت دعياً نيط في آل هاشم

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وأن امرأ كانت سمية أمه

وسمراء، مغلوب إذا بلغ الجهد

وهو هجاء بالنسب ، أفاد فيه حسان من مثالب عرّفه إياها

(١) الديوان صـ ١١٨

أبو بكر ، كما نصحه الرسول ، فكان ذلك موجعا لقريش .

ولحسان أيضا همزية رائعة فى الرد على أبى سفيان ، وهى التى دعا له الرسول بالجنة مرتين حين سمع أبياتها ، وفيها أنصفُ بيت قالته العرب (١) :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى
فأنت مجوف نخب هـواء
هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه
وعنـد الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء
فشرُّكما لخيركما الفداء
فإما تثقفن بنو لؤى
جذيمة ، إن قتلهم شفاء

وفى هجاء قريش يقول عبد الله بن الحارث بن عدى(٢) :

وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر
فإن أنا لم أبرق فلا يسعنني
من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر

(١) ديوان حسان ص١٧ (٢) نظرات فى الشعر الإسلامى ص٣٢

بأرض بها عبد الإله محمد

أبلغ ما فى النفس إذ بلغ القر

(٤) حرب نفسية ضد المشركين : عرف فى الجاهلية وصدر الإسلام مصطلح «تخذيل عنه أو عنهم» وقصد به ما يعرف حديثا بالحرب النفسية أو الباردة، كان الشاعر يرسل فى أبياته نوعا من التهديد والإنذار، حين يبالغ فى وصف القوة والاستعداد حتى يخيف الأعداء فيتراجعون عن الحرب، يقول معبد الخزاعى يخوف أبا سفيان ابن حرب، ويخذله عن الرسول :

كادت تهد من الأصوات راحلتى

إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل(١)

تردى بأسد كرام لا تنابلة

عند اللقاء، ولا ميل معازيل

فظلت أعدو أظن الأرض مائلة

لما سموا برئيس غير مخذول

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : صـ ٢٥٩، الجرد : الخيل، الأبابيل : الجماعات، تردى : تسرع، تنابلة : قصار، ميل : بغير رماح، معازيل : جبناء، تغطمطت : اهتزت.

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم

إذا تغطمطت البطحاء بالخيل(1)

من جيش أحمد لا وخش تنابلة

وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

● ويقول شداد بن عارض الجشمي يخوف أهل الطائف:(2)

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها

وكيف نصركم من ليس ينتصر

إن التي حرقت بالنار فاشتعلت

ولم يقاتل لدى أحجارها هدر

إن الرسول متى ينزل بساحتكم

يظعن ، وليس بها من أهلها بشر

● وكعب بن مالك يذكر بدراً ويهدد المشركين :(3)

رسول الله يقدمنا بأمر

من امر الله أحكم بالقضاء

فما ظفرت فوارسكم ببدر

وما رجعوا إليكم بالسواء

(1) تغطمطت : اهتزت وخش: السفلة الرعاع ، القيل : القول ، أى : ليس وصفي خيالا .

(2) المرجع السابق : ص ٢٥٧ (3) نفسه : ٢٥١

فلا تعجل أبا سفيان وارقب

جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله ، روح القدس فيها

وميكال ، فيا طيب اللقاء

ومن أقوى ما قاله حسان فى تهديد قريش وتخويفها أبياته فى الهمزية قبيل فتح مكة :(١)

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تثير النقع ، موعدها كداء

يبارين الأسنة مصغيات

على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات

تلطمهن بالخمر النساء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا

وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم

يعين الله فيه من يشاء

---

(١) الديوان : ص ٧٣ ، مصغيات : منحرفات للطعن ، الأسل : الرماح ، متمطرات : تخرج عن الجماعة لسرعتها ، تلطمهن بالخمر : يضربن الخيل بخمرهن لردها .

وقال الله قد يسرتُ جنـــدا

هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنـــا في كل يوم من معد

قتال أو سباب أو هجاء

فنحكم بالقوافي مَن هجانا

ونضرب حـــين تختلط الدماء

(٥) وصف المعارك والسلاح وبلاء المجاهدين : لم تكن المعارك التي خاضها المسلمون - خاصة في الفتوحات على نفس المستوى المحدود البسيط الذي كانت عليه معارك الجاهلية ، وإنما تنوعت الأسلحة وكثرت العدد والآلات ، ومع ذلك ظل المقاتل المسلم على فروسيته وشجاعته وإقدامه ، فما أرهبته كثرة الجيوش ، ولا أفزعته الأسلحة التي لم يعهدها ، وظل الشعر على عهده في متابعة الأحداث ، فوصف المعارك بدقة متناهية وذكر الأسلحة لدى الأعداء ، ولدى المسلمين ، وتجهيزاتهم ، بدءا من معارك الإسلام الأولى إلى الفتوحات ، وحتى فتنة عثمان ، يقول كعب بن مالك رداً على هبيرة بن وهب[1] :

نجالد لا تبقى علينـــا قبيلة

من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

---

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : صـ ١٩٢

وفينا رسول الله نتبع أمره
إذا قال فينا القول ، لانتطلع

نشاوره فيما نريد ، وقصرنا
إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع

وقال رسول الله لما بدوا لنا :
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا(1)
إلى ملك يحيا لديه ويرجع

فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم
ضحيا ، علينا البيض لا نتخشع

بملمومة فيها السنور والقنا
إذا ضربوا أقدامها لا تورع

فجئنا إلى موج من البحر وسطه
أحابيش منهم حاسر ومقنع

---

(1) يشرى : يبيع ، ضحيا : تصغير ضحى ، البيض : بفتح الباء : السيوف ، وبكسرها : الخوذ ، نتخشع : نضعف ، ملمومة : كتيبة ، السنور : لباس كالدرع ، تورع : تكف . أحابيش : نسبة إلى جبل حبشى ، وهم القرشيون ، نصية : أشراف مختارون .

ثلاثة آلاف ونحن نصية

ثلاث مئين إن كثرنا وأربع[1]

نغاورهم ، تجرى المنية بيننا

نشارعهم حوض المنايا ونشرع

تهادى قسى النبع فينا وفيهم

وما هو إلا اليثربى المقطع

وخيل تراها بالفضاء كأنها

جراد صبا فى قرة يتربع

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى

وليس لأمر حمّه الله مدفع

ضربناهم حتى تركنا سراتهم

كأنهم بالقاع خشب مصرّع

وراحوا سراعاً موجفين كأنهم

جهام هراقت ماءه الريح مقلع

ورحنا وأخرانا بطاء كأننا

أسود على لحم ببيشة ظلع

(١) نغاورهم : نغير عليهم ، نشارعهم : نشاربهم ، النبع : شجر تصنع منه القسى . اليثربى : أوتار من يثرب ، صبا : ريح شرقية باردة . قرة : برد ، يتربع : يجىء ويذهب ، مصرع : مطروح على الأرض ، موجفين : مسرعين ، جهام . سحاب . هراقت : أفرغت . بيشة : موضع . ظلع : ثقيل الخطو .

ونحن أناس لا نرى القتل سبة

على كل من يحمى الزمار ويمنع

شددنا بحول الله والنصر شدة

عليكم ، وأطراف الأسنة شرّعُ

عمدنا إلى أهل اللواء ، ومن يطر

بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع

فحانوا وقد أعطوا يدا وتخاذلوا(۱)

أبى الله إلا أمره ، وهو أصنع

وفى أبياته التالية ، يضيف «كعب» إلى ما عرف من أسلحة مادية سلاحا معنويا جديدا أمد به الإسلامُ رجاله ، هو سلاح التقوى ، حين يبيع المجاهد نفسه إلى ربه كى ينصر دين الله ، يقول فى موقعة الخندق (۲) :

دربوا بضرب المعلمين فأسلموا

مهجات أنفسهم لرب المشرق

فى عصبة نصر الإله نبيه

بهم ، وكان بعبده ذا مرفق

(۱) حانوا : ماتوا وهى من الحين ، أعطوا يدا : استسلموا .

(۲) شعر عصر صدر الإسلام : ص ٦٠ ، دربوا : من التدريب المعلمين : المتميزين . سابغة : دروع كاملة . النهى الغدير . المترقرق : الرائق السيال .

في كل سابغة تخط فضولها

كالنهي هبت ريحه المترقرق

تصل السيوف إذا قصرن بخطونا

قدما ونلحقها إذا لم تلحق

فترى الجماجم ضاحيا هاماتها(١)

بلّه الأكف كأنها لم تخلق

ونُعِدُّ للأعداء كل مقلص

ورد ، ومحجول القوائم أبلق

تردى بفرسان كأن كماتهم

عند الهياج أسود طل ملثق

أمر الإله بربطها لعدوه

في الحرب ، إن الله خير موفق

لتكون غيظا للعدو وحُيَّطا

للدار ، إن دلفت خيول النزق

---

(١) ضاحيا : واضحا ظاهرا . بله : وكذلك ، مقلص : جواد طويل القوائم . ورد : أشقر . محجول : في قوائمه بياض . تردى : تسرع . ملثق : زلق وطين من الطل .

حيطا : حماية وإحاطة .

ويمدنا الله العزيز بقوة

منه ، وصدق الصبر ساعة نلتقى

ونطيع أمر نبينا ونجيبه

وإذا دعا لكريهة ، لم نسبق

وفى يوم اليمامة — إحدى معارك الردة — على عهد « أبى بكر الصديق » يصف « ضرار بن الأزور » لقاء المسلمين بأتباع سجاح بنت الحارث ومسيلمة الكذاب :(١)

ولو سألت عنا جنوب لأخبرت

عشية سالت عقرباء وملهم

وسال بفرع الواد حتى ترقرقت

حجارته فيها من القوم الدم

عشية لا تغنى الرماح مكانها

ولا النبل ، إلا المشرفى المصمم

فإن تبتغى الكفار غير مليمة

جنوب ، فإنى تابع الدين مسلم

أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة

ولله بالمرء المجاهـــد أعلم

---

(١) نظرات فى الشعر الاسلامى والأموى : صـ ٤٤.

ولم يفت الشاعر المسلم أن يشير إلى الفيلة التى يقدمها الفرس أمام الجيش فتفزع الخيول ، فى القادسية حضر عدد كبير من الشعراء ومنهم ربيعة بن مقروم الضبي :(١) الذى ذكر الجاحظ أبياته عن الفيل فى كتاب الحيوان ، يقول :

ودعوا نزال فكنت أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل
ودخلت أبنية الملوك عليهم
ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها
أبناء فارس بيضها كالأعبل(٢)
متسربلى حلق الحديد كأنهم
جرب مقارفة عنية مهمل

وفى نفس المعركة ـ القادسية ـ لا يكتفى الشاعر قيس بن المكشوح المرادى ، الذى قتل « رستم » قائد الفرس، لا يكتفى بوصف المعركة وإنما يبدأ من أول الرحلة(٣) :

(١) المرجع السابق : ص٥٨ - كذلك : العصر الاسلامى : ص ٦٤
(٢) البيض : الخوذ ، الأعبل : صخر أبيض ، جرب : إبل مصابة بالجرب ، مقارفة : مريضة بالقرف ، وهو داء يقتل الإبل ، عنية : طلاء للجرب ، مهمل : الذى يهمل الإبل .
(٣) العصر الإسلامى : ص ٦٣ . تردى : تسرع .

جلبت الخيل من صنعاء تردى
بكل مدجج كالليث سـامى
إلى وادى القرى فديار كلب
إلى اليرموك فالبلد الشـآمى
وجئنا القادسية بعد شهر
مسومة ، دوابرها دوامى[1]
فناهضنا هنالك جمع كسرى
وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعاً
بسيف لا أفل ولا كهام

٦ — الإقدام على الجهاد والفرح بالشهادة : لم يكن حرص المسلمين على التسابق للجهاد والاشتراك فى كل المعارك دافعه تحقيق النصر على الأعداء فحسب ، وإنما لاحت أمامهم أهداف عدة ، جميعها

---

(١) مسومة : بها علامة ، دوابر : عراقيب ، دوامى : ملطخة بالدم ، المرازبة : رؤساء الفرس ، أفل ، مثلم ، كهام : كليل .

تتصف بالسمو والنبالة ، فنشر دين الله ، والإطاحة بعروش الكفر والشرك ، هي الغاية القصوى ، ولتحقيقها يسعى المجاهد إلى النصر ، لا يمنعه من ذلك حرص على الحياة ، لأن من غاياته أيضا الفوز بالشهادة ، وهل أعلى مقاما من جنة الخلد يقيم بها الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، من هنا كان تزاحمهم على الذهاب للمعركة ، وألم من تمنعه حوائل عن الاشتراك ، ومن هنا كان فرحهم بالشهادة وطلبهم إياها ، وكان رضاهم بكل ما يلاقون في الميدان من أعدائهم ، أرسل النبي ﷺ وفدا لبعض القبائل ليفقهوهم في الدين ، لكنهم غدروا بالوفد ، وأعدوا اصحاب رئيسه وهو : « خبيب بن عدي » فقال :(١)

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي

وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

فذا العرش صبرني على ما يراد بي

فقد بضعوا لحمي وقد ياس مطمعي

وقد خيروني الكفر ، والموت دونه

وقد همات عيناي من غير مجزع

فوالله ما أرجو إذا مت مسلما

على أي جنب كان في الله مصرعي

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين صـ ٣٤٠

ولست بمبد للعدو تخشعا

ولا جزعا ، إنى إلى الله مرجعى

واستمع إلى « بشر بن ربيعة الخثعمى » يصور تسابق المجاهدين، وقد تمنوا لو أن لهم أجنحة فيطيرون إلى الميدان (1):

تذكر - هداك الله - وقع سيوفنا

بباب قديس ، والمكر عسير

عشية ود القوم لو أن بعضهم

يعار جناحى طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قراع كتيبة

دلفنا لأخرى كالجبال تسير

ويشبه « الزبرق بن عياض الهذلى » نفسه بالجدى الكبير المربوط فى موضعه لا حيلة له ، وكان كبر سنه قد منعه من مرافقة أبنائه إلى الميدان (2) :

---

(1) العصر الإسلامى ص ٦٣

(2) السابق ص ٥٦ . أملاج : اسم مكان ، اليعر: الجدى الكبير ، خلافهم : بعدهم . العتر : شجر له أوراق صغيرة .

أسائل عنهم كلما جاء راكب

مقيما بأملاح كما ربط اليعر

فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم

بستة أبيـــات كما نبت العتر

ومن أعجب ما حدث فى موقعة القادسية قصة «أبى محجن الثقفى» ، كان شرّابا للخمر حتى أقيم عليه الحد مرات ، ثم حبسه «سعد بن أبى وقاص» بأمر الخليفة «عمر بن الخطاب» ، وشبت معركة القادسية فاشتعل حماسا وهو الفارس المقدام ، ورجا «سعدا» أن يطلقه ليسهم فى شرف الجهاد ، لكنه أبى ، فاتجه لزوجة «سعد» وتمنى أن تطلقه يوما وتعيره فرسا تسمى البلقاء ولها عهد أن يرجع فى الفجر فيعود لقيده ، فأبت ، واستعطفها بأبيات حزينة تعبر عن ندمه ورغبته فى التوبة :(١)

كفى حزنا أن تردى الخيل بالقنا

وأترك مشدودا علىّ وثاقيا

حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت

وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا

ولله عهدٌ ، لا أخيس بعهده

لئن فرجت ، أن لا أزور الحوانيا

---

(١) نظرات فى الشعر الاسلامى والأموى : ص ٥٦

فرقت له زوجة «سعد» وأطلقته ، فحمل على الأعداء ببسالة أدهشت المحاربين حتى ظنوه ملكا، وقال «سعد» «الطعن طعن أبي محجن والعدو عدو البلقاء ، ولولا حبس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن وهذه البلقاء» . وانتهى القتال في منتصف الليل فعاد لقيده وهو يقول :(١)

لقد علمت ثقيف غير فخر
بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأنـا رفدهم في كل يوم
فإن جحدوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي
ولم أكره لمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وإن أطلق أجرعهم حتوفا

و «عبد الله بن رواحة» ، أحد فرسان الشعر الثلاثة في المدينة يتجهز لغزوة مؤتة ، ويدعو له مودعوه بالعودة سالما فيرد :

---

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٥٦

لكننى أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا(١)

أو طعنة بيدى حران مجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرّوا على جدثى
يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ويستغرقه أمل الشهادة ، فيَعُدُّ فرسه بالراحة من الأسفار ، فقد عزم على الرحلة الأخيرة إلى جنة الرضوان :

إذا أدّيتنى وحملت رحلى
مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنك أنعم وخلاك ذم
ولا أرجع إلى أهلى ورائى

وجاء المسلمون وغادرونى
بأرض الشام مشتهى الثواء

وفى المعركة استشهد حامل اللواء — « زيد بن حارثة » —

(١) شعر عصر صدر الإسلام : ص ٦٩ . ذات فرغ : واسعة عميقة . الزبد : الرغوة ، وهو يقصد دمه .

لحمله « جعفر بن أبي طالب » ، واستشهد لحمله « عبد الله بن رواحة » وانطلق يردد وهو يرى بعيني قلبه منازل الشهداء في الجنة :

أقسمت يا نفس لتنزلنه
لتنزلنه أو لتكرهنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه
جعفر ما أطيب ريح الجنة

ويستجيب الله لرغبة القلب المؤمن التقي ، ويفوز بالشهادة ، لقد كان عدد الروم ضعف عدد المسلمين في ذلك اليوم خمسين مرة .

٧ — الفخر بتأييد الدين والانتصار لدعوة الإسلام : رغم أن الفخر غرض شعري قديم ، لم يستحدثه الشعراء المسلمون ، إلا أن الإسلام قد أضفى عليه من السمات ما أكسبه جدة ، تجعله يخالف الفخر الجاهلي كل المخالفة ، لقد صار مناط الزهو إعلاء كلمة الله ، وموضع الفخر هو الذود عن الإسلام ، وسر التعالي والاعتداد يكمن في طاعة الرسول والاقتداء به ومناصرته ، ثم يأتي الفخر بالانتصار في القتال على أعداء الله ، ولم تخل بعض مواقف الفخر من ذكر الآباء والأجداد ، ولكنه يختلف عن ذكر الجاهلية ، إنه لا يفخر بهم من حيث الأصل والمحتد والحسب والنسب ، وإنما بسبب أعمال بطولية كمناصرة الله ورسوله وحفظ الدين وحسن البلاء في الحرب . وأول ما كان من فخر

إسلامي كان زهو الأنصار بما قدموا من حماية للدين ، وإيواء للمهاجرين ، وتأييد ونصر للنبي الكريم ، يقول حسان(١) :

منعنا بها خير البرية كلها
إماما ووقرنا الكتاب المنزلا
نصرنا وآوينا وقوم ضربنا
- له - بالسيوف ، ميل من كان أميلا
فإن يأتنا أو يلقنا عن جنابة
يجد عندنا مثوى كريما وموئلا

وما أكثر تفاخر حسان — وحق له الفخر — أليس من الأنصار ، أليس شاعر الرسول ؟ يقول تياها (٢) :

قومي الذين هم آووا نبيهم
وصدقوه ، وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هم سلف
للصالحين مع الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله ، قولهم
لما أتاهم كريم الأصل مختار

---

(١) ديوان حسان ص ٢٧٦ (٢) الديوان ص ٣٨٨

أهلا وسهلا ، ففى أمن وفى سعة

نعم النبى ونعم القسم والجار

فأنزلوه بدار لا يخاف بها

من كان جارهم ، دارا هى الدار

وقاسموه بها الأموال إذ قدموا

مهاجرين ، وقسم الجاحد النار

ثم يأتى الفخر بالشجاعة والانتصار ؛ فى « نهاوند » يتباهى « عروة بن زيد الخيل الطائى » ويتمنى لو رأته زوجه باسلا شجاعا غير هياب رغم قوة العدو وبأسه (١):

ألا طرقت رحلى ، وقد نام صحبتى

بإيوان شيرين المزخرف ، خلتى

ولو شهدت يومى (جلولاء) حربنا

ويوم نهاوند المهول استهلت

إذن لرأت ضرب امرىء غير خامل

مجد بطعن أروع غير مصلت

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٣١١

ولما دعوا : يا عروة بن مهلهل

ضربت جموع الفرس حتى تولت

وكم من عدو أشوس متمرد

عليه بخيلى — فى الهياج — أظلت

وكم كربة فرجتها وكريهة

شهدت لها أزرى إلى أن تولت

وكم فى سجل البطولة الإسلامية من مجال للفخر والازدهاء ، فى « طاووس » — بأطراف فارس — يتعالى البطل بإخوانه الأبطال ، ويصفق الشعر للبسالة يقول « خليد بن منذر »[1] :

بطاووس ناهبنا الملوك وخيلنا

عشية شهراك علون الرواسيا

أطاحت جموع الفرس من رأس حالق

تراه كوار السحاب مناغيا

فلا يبعدن اللهُ قوما تتابعوا

فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا

وفى (واج روذ) بهمذان ، ينكل المسلمون بقائد الفرس (موتا)

(١) المرجع نفسه ص ٣٠٧

ويمتزج الفخر بالنفس مع الفخر بالجماعة في شعر « نعيم بن مقرن »[١] :

ولما أتانا أن موتا ورهطه
بني باسل ، جرّوا جنود الأعاجم
نهضنا إليهم بالحديد كأننا
جبال تراءت من فروع القلاسم
صدمناهم في « واج روذ » بجمعنا
غداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا في حومة الموت ساعة
لحدّ الرماح والسيوف الصوارم
أصبنا بها موتا ومن لف جمعه
وفيها نهاب قسمة غير غانم
تبعناهم حتى أووا في شعابهم
نقتّلهم قتل الكلاب الجواحم

ولا ضير من الفخر بالقبيلة ، والاعتزاز بالأصل ، وذكر الماضي التليد ، ما دام الحاضر مشرّفا ، وما دام مجال الفخر محمودا ، ومناط الزهو جهادا في سبيل الله[٢] يقول نافع بن الأسود بن قطبة التميمي، يفخر ببلائه في القادسية وبتميم :

(١) المرجع السابق : صـ ٣٠٨
(٢) نفس المرجع : صـ ٣٠٥/٢٩٤

وقال القضاة من معد وغيرها

تميمك أكفاء الملوك الأعاظم

هم أهل عز ثابت وأرومة

وهم من معدّ فى الذرا والغلاصم

وهم يضمنون المال للجار ما ثوى

وهم يطعمون الدهر ضربة لازم

وحين أتى الإسلام كانوا أئمة

وبادوا معدا كلها بالجرائم

إلى هجرة كانت سناء ورفعة

لباقية فيهم وخير مراغم

فجاءت بهم ضمن الكتائب نصرة

فكانوا حماة الناس عند العظائم

فصفّوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا

وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم

(٨) الرثاء : والرثاء أيضا غرض قديم اكتسب فى ظلال الإسلام ملامح جديدة ، وأمده الشعراء المسلمون بروح متألقة ، حوّلته إلى لون جديد عزيز ، يُعد مفخرة للشعر العربى فى تاريخه الحافل العريق .

ولم تقتصر الإضافات الإسلامية فى شعر الرثاء على اللغة والأسلوب أو على المعانى والأفكار، لقد شملت هذين الجانبين ثم تجاوزتهما إلى المنطلق — أو نقطة البدء — الذى يصدر عنه الشاعر فى رثائه، لم يعد الجزع المهلك، والأسى المستبد، بل صار الصبر الجميل والاحتساب عند الله، تحول الموت من فناء واندثار إلى مرحلة انتقال، أصبح وسيلة لجوار الله الكريم، والوصول إلى جنة الخلد ونعيم المغفرة .

وبعد أن كان القتل فى الحرب عارا لابد من الثأر فيه للقتيل، أصبح استشهادا فى سبيل الله يتسابق للفوز به جميع المجاهدين، وكان لابد لشعر الرثاء أن يتغير فى العهد الإسلامى ليستوعب تلك المعانى السامية الرفيعة، ومن هذا يمكن أن نعد الرثاء غرضا جديدا .

رثاء الرسول ﷺ : فى تصورى أن وفاة الرسول الكريم كانت حدثا جللا، هز قلوب المسلمين وعقولهم، كانت اختبارا عسيرا وقفوا أمامه حيارى جزعين، ولعل البعض ظل واقعا تحت تأثير الهول أياما وشهورا، ولذلك يصبح التعبير عن وقع الحدث فى النفس صعبا، وتصوير تأثيره على الوجدان شاقا، وهكذا يمكن لنا تفسير قلة قصائد الرثاء التى صيغت بعد وفاته عليه السلام، أو ضعف مستواها الفنى، ومع ذلك فهناك عدد منها على مستوى جيد . يقول حسان(١) :

---

(١) الديوان : صـ ٢٠٧

آليت حلفة بر غير ذى دخل

منى ألية بر غير إفناد

بالله ما حملت أنثى ولا وضعت

مثل النبى رسول الرحمة الهادى

ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد

أوفى بذمة جار أو بميعاد

من الذى كان نورا يستضاء به

مبارك الأمر ذا حزم وإرشـــاد

مصـــدقا للنبيين الألى سلفوا

وأبذل الناس للمعروف للجادى

خـــير البرية إنى كنت فى نهر

جار ، فأصبحت مثل المفرد الصادى

وفى « داليته » الثانية يبدو حسان جازعا هالعا ، قد حار لبه وأوشك أن يغيب رشده ، وأظنها من أوائل ما قاله فى رثائه ﷺ (١) :

جنبى يقيك الترب ، لهفى ، ليتنى

غيبت قبلك فى بقيع الغرقـــد

(١) الديوان ص ٢٠٨ ، غرقد : شجر صحراوى ذكى الرائحة

أأقيم بعدك في المدينة بينهم
يا لهف نفسي ليتني لم أولد
بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الاثنين ، النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متلددا
يا ليتني صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجلا
في روحة من يومنا أو في غد
فنقوم ساعتنا فنلقى طيباً
محضا ضرائبه كريم المحتد
نور أضاء على البرية كلها
من يهد للنور المبارك يهتد
صلى الإله ومن يحف بعرشه
والطيبون على المبارك أحمد

وله أبيات أخرى « رائية » وقصيدة « لامية » ، وأظننا لو تتبعنا كل شعره واجدين الكثير ، ولكن تكفينا بعض الأمثلة .

رثاء الشهداء : حين استشهد حمزة بن عبد المطلب ـ عم الرسول

ﷺ — وكان ذلك بمؤامرة غادرة من هند بنت عتبة ، ورثاه عدد كبير من شعراء المسلمين ، فقد كان رضوان الله عليه حصناً للدين ، وسنداً للنبى ، وقوة للمسلمين ، كان كما سماه رسول الله : أسد الله ، ولذا عظمت الكارثة بفقده واشتد الحزن ، إلا أن الروح المؤمنة ظلت هى الطابع المسيطر على ذلك الرثاء ، تقول أخته — صفية بنت عبد المطلب[1] :

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
إلى جنة يحيا بها وسرور

فذلك ما كنا نرجى ونرتجى
لحمزة يوم الحشر خير مصير

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
بكاء وحزناً محضرى ومسيرى

على أسد الله الذى كان مدرها
يزود عن الإسلام كل كفور

● ويقول « كعب بن مالك » فى رثاء « حمزة » [2] :

أصيب المسلمون به جميعاً
هناك وقد أصيب به الرسول

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين صـ ٢٦٢

(٢) المرجع نفسه صـ ٢٦٢ ، ٢٦٤

عليك سلام ربك في جنان

مخالطها نعيم لا يزول

• وفي غزوة مؤتة استشهد عدد كبير من المجاهدين ، منهم « عبد الله ابن رواحة وجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، فرثاهم كعب ابن مالك (١) :

نام العيون ودمع عينك يهمل

سحا كما وكف الطباب المخضل

في ليلة وردت علي همومها

طورا أحن وتارة أتململ

وكأنما بين الجوانح والحشا

مما تأوبني شهاب مدخل

وجدا على النفر الذين تتابعوا

يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا

صلى الإله عليهم من فتية

وسقى عظامهم الغمام المسبل

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين صـ ٤٦٢

ولا ريب أن عظم المصاب في الشهداء، حفز على رثاء الكثيرين لهم، لقد نظم حسان أكثر من قصيدة يرثيهم بها، منها (١) :

تأوبني ليل بيثرب أعسر
وهمّ اذا ما نوم القوم مسهر
لذكرى حبيب هيّجت لى عبرة
سفوحا، وأسباب البكاء التذكر
بلاء وفقدان الحبيب بلية
وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا
شَعُوبَ، وقد خلفت فيمن يؤخر

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كنصل السيف من آل هاشم
أبيّ إذا سيم الظلامة يجسر
فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق أخضر

(١) الديوان صـ ٢٢٣، شعوب: بفتح الشين: المنية.

وفى الغزوات المتلاحقة ، عبر الفتوح الإسلامية ، يسقط شهداء مجهولون ، فيرثيهم الشعر ، فى معركة جوزجان ببلاد فارس يذكر « ابن الغريزة النهشلى » شهداء المسلمين(١) :

سقى مزن السحاب إذا استهلت
مصارع فتيــة بالجوزجان
وما بى أن أكون جزعت إلا
حنــين القلب للبرق اليمانى
ورب أخ أصاب الموت قبلى
بكيت ، ولو نعيت له بكانى
دعانى دعوة والخيـل تردى
فما أدرى : أباسمى أم كنانى

وأحيانا يرثى الشاعر نفسه ، أو بعض نفسه ، إنه قد يصاب فى إحدى المعارك ، فيفقد عضوا من جسمه ، وبكل إيمان وتقوى يستقبل الأمر فى رضى ، ويحتسب ما ضاع منه عند الله ، يراه تضحية هينة فى سبيل نصرة الدين ، وإعلاء كلمة التوحيد ، « عبد الله بن سبرة الحبشى » وقد قطعت يده فى معركة بارز فيها قائد الروم(٢) :

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : صـ ٦٢
(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين صـ ٣١٨ وأم جار : كفه

ويل «أم جار» غداة الروع فارقنى

أهون على به إذ بان فانقطعا

يمنى يدى غدت منى مفارقة

لم أستطع يوم «فلطاس» لها تبعا

وما ضننت عليها أن أصاحبها

وقد حرصت على أن نستريح معا

وقائل غاب عن شأنى وقائلة

هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا

وكيف أتركه يسعى بمنصله

نحوى وأعجز عنه بعد ما صنعا

ما كان ذلك يوم الروع من خلقى

ولو تقارب منى الموت فاكتنعا

يمشى إلى مستميت مثله بطل

حتى إذا أمكنا سيفاهما قطعا

لئن يكن «أرطبون» الروم قطعها

فإن فيها بحمد الله منتفعا

بطانتين وجرموزا أقيم به (١)

صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

٩ — الحنين والاغتراب : وقد نشأ فى رحاب الفتوح غرض شعرى جديد ، هو الحنين إلى الأهل والوطن ، والإحساس بالغربة فى البلاد التى سافروا إليها لفتحها ، أو التى أقاموا فيها بعد الفتح ليرسوا قواعد الدين ، ويحموا ذماره ، وقد يكون الحنين من الأهل المقيمين فى الوطن إلى ذويهم وأبنائهم الذين سافروا للجهاد والغزو ، وكلاهما وجهان للحنين الذى كابده العرب لأول مرة ، فالعربى لم يتعود الأسفار البعيدة ، وحتى التجار الذين كانوا يسافرون لجلب البضائع ، كانت رحلاتهم معروفة مألوفة إلى مشارف الشام واليمن ، أما فى الفتوح فقد شرقوا وغربوا وأيمنوا وأيسروا ، ورحلوا إلى أقاصى الأرض فى كل اتجاه ، وربما قيل إن بكاء الأطلال كان لونا من الحنين إلى الديار بسبب الرحلة بحثا عن الماء والكلأ، لكن الأمر جد مختلف ، فتنقل العربى داخل الجزيرة لا يشبه تنقله إلى بيئات شديدة الاختلاف والتباين ، وتفصلها عن وطنه آلاف الفراسخ ، وعديد من البحار والأنهار .

كذا فإن بكاء الأطلال لم يلبث أن تحول إلى تقليد متكلف ، يخلو

(١) أم جار : الكهف ، فلطاس : مكان المؤقمة ، اكتنفا : دنا وأحاط ، أرطبون : قائد الروم ، جرموز : طرف .

من الصدق ، ويفتقد للتجربة المعاناة ، بينما يصدر حنين الشاعر الإسلامى عن غربة حقيقية ، وإحساس بالبعد المكانى والزمانى .
استمع إلى هذا الشاعر يستبد به الحنين فيتخيل الخيام والمرابع ، ويدقق النظر ، وهو يعلم - يقينا - أن الرؤية مستحيلة ، لبعد المسافة وكثرة الحواجز ، ولكنه ينظر مساء يدا[1] :

أكرر طرفى نحو نجد وإننى
برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنينا إلى أرض كأن ترابها
إذا أمطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضه
ونور الأقاحى وشى برد محبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى
خيام بنجد ، دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافع
أجل لا ، ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عبرة
لعينيك مجرى مائها يتحدر

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٣١٣ ، لم يذكر اسم الشاعر

متى يستريح القلب : إما مجاوز
لحرب ، وإما نازح يتذكر

وتهيج ذكرى الحبيبة دموع شاعر آخر ، وقد يئس من اللقاء ، فيستروح النسمات من ناحية الديار ، ويشكو غربة الروح بين قوم لا يفهمون عنه ولا هو يفهمهم(1) :

أتبكى على نجد وريّا ولن ترى
بعينيك ريا ما حييت ولا نجدا

ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة
ولا واطئا من ترجن ثرى جعدا

ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها
رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا

تبدلت من ريا وجارات بيتها
قرى نبطيات يسميننى مردا

ألا أيها البرق الذى بات يرتقى
ويجلو دجى الظلماء ، ذكرتنى نجدا

---

(1) المرجع السابق والصفحة .

وفى هذا المجال أيضا يبرز حنين آخر هو حنين الآباء والأهل فى الوطن لأبنائهم وذويهم الغزاة ، إن المخبل السعدى يشتاق ولده شيبان الذى خرج مع الجيش إلى فارس ويتذكر طفولته وحدبه عليه لكى يحرك مشاعره(١):

أيهلكنى شيبان فى كل ليـــلة

لقلبىَ من خوف الفراق وجيب

أشيبان ما أدراك أن رب ليلة

غبقتك فيـها والغبوق حبيب

فإن يك غُصنى أصبح اليوم ذاويا

وغصنك من ماء الشباب رطيب

فإنى حنت ظهرى خطوب تتابعت

فمشيي ضعيف فى الرجال دبيب

وكذلك « أمية بن الأسكر » ، يحن إلى ابنه « كلاب » الذى رحل غازيا(٢) :

أعاذل قد عذلت بغير قـدر

ولا تدرين عاذل ما ألاقى

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى ص ٤٨

(٢) تاريخ الشعر العربى جـ ١ ص ٨٢

فاما كدت عاذلتى فردى

« كلابا » إذ توجه للعراق

فتى الفتيان فى عسر ويسر

شديد الركن فى يوم التلاقى

فلا والله ما باليت وجدى

ولا شفقى عليك ولا اشتياقى

وإبقائى عليك إذا شتونا

وضمك تحت نحرى واعتناق

ومن الحنين كذلك ما لم تفصح عنه الزوجة حياء وتعففا ، ولكن الزوج أشار اليه ، النابغة الجعدى يقول لزوجته (١) :

باتت تذكرنى بالله قاعدة

والدمع ينهل من شأنيهما سبلا

يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى

كرها ، وهل أمنعن الله ما فعلا

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى

أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٩

(١٠) وصف البلاد الجديدة : ومن الأغراض الجديدة فى الشعر الإسلامى ما تطرق إليه الشعراء من وصف البـــلاد التى رأوها فى غزواتهم ، سواء من حيث طبيعتها أو مبانيها ومناظرها . فهذا « زياد بن حنظلة » يصف الخير والخصوبة فى الشام(١) :

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها
وعيشا خصيبا ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب
مواريث أعقاب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله
تحمل عبئا حين شالت شوائله

لكن « نافع بن الأسود بن قطبة » يفضل ريف الرى لطيب عيشه(٢) :

رضينا بريف الرى والرى بلدة
لها زينة من عيشها المتواتر
لها نشر فى كل آخر ليلة
تذكر أعراس الملوك الأكابر

(١ ، ٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٣١٤/٣١٥

وتجتذبهم كنائس الروم بعمارها المهيب وبنائها الضخم وما فيها من زخارف فنية تجتذب نظر « حارثة بن النمر »[1] :

لله باليرموك قوم طحطحوا
أحساب عاتى الروم بالأقدام
فتعطلت منهم كنائس زخرفت
بالشام ذات فسافس ورخام

وفى « مرو » يرى الشاعر منظرا طريفا فلا يملك نفسه من التعبير عنه فى شعره ، إن بردها القارس ، وثلجها الذى يتساقط على أهلها قد دفعهم للاحتماء بثياب غليظة ودس أيديهم فى جيوبها فبدوا كالأسرى[2] :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت
أرض تتابع ثلجها المذرور
إذ لا ترى ذا بزة مشهورة
إلا تخـــال كأنه مقرور
كلتا يديه لا تزايل ثوبه
كل الشتاء ، كأنه مأسور

(١١) المعانى الإسلامية : كثيرة هى القيم الرفيعة والمعانى الإسلامية السامية التى جاء بها الدين الحنيف فتأثر بها الشعراء وراحوا يصوغونها شعرا ، ولو عرضنا نماذج لكل معنى وقيمة ، لطال بنا

(١ ، ٢) المرجع السابق : ص ٣١٥

المقام ، لكن تكفى أمثلة قليلة دالة ، يقول « حسان » فى التوحيد والجنة(١) :

فأنت إله الخلق ربى وخالقى
بذلك ما عمرت فى الناس أشهد

تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلهـــا أنت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد

لأن ثواب الله كل موحد
جنان من الفردوس فيها يخلد

وفى التقوى وبر الوالدين يقول « عبدة بن الطبيب » موصيا بنيه(٢) :

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع

وببر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع

---

(١) ديوان حسان : صـ ٣٣٨
(٢) الأدب فى عصر النبوة : صـ ٢٦٥

وفى التوبة والاستغفار يقول « المخبل السعدى » وكان فى هجائه للزبرقان بن بدر قد تعرض لأخته خليدة كذبا (١) :

لقد ضل حلمى فى خليـدة ضلة

سأعتب نفسى بعـــدها وأتوب

وأشهـــد ، والمستغفر الله أننى

كذبت عليها ، والهجاء كذوب

الوفاء بالعهد : كعب بن زهير(٢) :

رحلت إلى قومى لأدعو جماعهم

إلى أمر حزم أحكمتـــه الجوامع

ليوفوا بما كانوا عليه تعاقدوا

بخيف منى ، والله راء وسامع

سأدعوهم جهدى إلى البر والتقى

وأمر العلا ما شايعتنى الأصابع

وانظر إلى أى مدى تغلغلت قيم الإسلام ، حتى يتوب السكير نادما مستغفرا ، يقول أبو محجن الثقفى(٣) :

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٨

(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٣١

(٣) المرجع السابق : ص ٢٦٦

أتوب إلى الله الرحيم فإنه

غفور لذنب المرء ما لم يعاود

ولست إلى الصهباء يوما بعائد

ولا تابع قول السفيه المعاند

وكيف وقد أعطيت ربي مواثقا

أعود لها ؟ والله ذو العرش شاهد

الفرار بدين الله وإباء الضيم : « عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى » وكان بين المهاجرين للحبشة في أول الدعوة[1] :

يا راكبا بلغن عني مغلغلة

من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرىء من عباد الله مضطهد

ببطن مكة مقهور ومفتون

إنا وجدنا بلاد الله واسعة

تنجي من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز

ي في الممات وعيب غير مأمون

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : صـ ٣١

إنا تبعنا رسول الله ، واطرحوا

قول النبي وقالوا الموازين

وفي الصبر على المكاره والتوكل على الله نجد مثالا رائعا في شعر « عبد الله بن حذف » وكان مع طائفة من المجاهدين لحاصرهم المرتدون في « جواثى » وأضرهم الجوع فصبروا واحتسبوا(١) :

أبلغ أبا بكر رسولا

وفتيان المدينـــة أجمعينا

فهـــل لـــكم إلى قوم كرام

قعود في جواثى محصرينا

كأن دمـــاءهم في كل فج

شعاع الشمس يغشى الناظرينا

توكلنـــا على الرحمن إنا

وجدنا الصبر للمتوكلينـــا

وفي معنى التوكل أيضا والإيمان بالقدر ، وأن الله هو الرزاق نجد من شعر كعب بن زهير(٢) :

---

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٤٥

(٢) تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي : ص ٣٧

وأعلم أن متى ما يأتى قدرى
فليس يحبسه شح ولا شفق
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى
فضل الذى بالغنى من عنده نثق
إن يفنَ ما عندنا فالله يرزقنا
ومن سوانا ، ولسنا نحن نرتزق

قول الحق ، ولو أمام الخليفة صاحب السلطان ، لقد فتح الله على المسلمين فاستولوا على أرمينية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، فأعطى الخمس لمروان بن الحكم ، وهو فى ذلك يخالف نهج الرسول وخليفتيه : أبى بكر وعمر ، ويعلو صوت الشعر منتقدا مدافعا عن الحق ، يقول عبد الرحمن بن الحنبل جنيد الجمحى ، للخليفة(١) :

احلف بالله رب الأنام
ما ترك الله شيئا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة
لكى نبتلى بك أو تبتلى
فإن الأمينين قد بينا
منار طريق عليه الهدى

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٦٥

فما أخذا درهما غيلة

ولا جعلا درهما في هوى

وأعطيت مروان خمس البلاد

فهيهات سعيك ممن سعى

و"يقتال «عثمان»، وتعقد الخلافة «لعلى» — كرم الله وجهه — لكن الفتنة أطلت بوجهها ماثلة في معارضة قوية ضد على بقيادة أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير، وتوزع ولاء المسلمين بين على وعائشة، وفزع الشعر مما يتوقع من صدام مسلح بين الطائفتين، وما في ذلك من هلاك للأمة ودمار للدولة، يقول «كعب بن جعيل التغلبي»(1):

أصبحت الأمة في أمر عجب

والملك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولا صادقا غير كذب

إن غدا تهلك أعلام العرب

وفي معركة الجمل حيث خرجت أم المؤمنين على رأس الجيش رغم أن طلحة والزبير لم يحضرا نساءهما فانتقد المسلمون ذلك، وعبر عن رأيهم «جارية بن قدامة السعدي»(2):

(1، 2) المرجع السابق ص ٦٥/٦٦

صنتم حلائلكم وقـــدتم أمكم
هذا ـــ لعمرك ـــ قلة الإنصاف

أمرت بجر ذيولهـا فى بيتها
فهوت تشق البيد بالإيجـــاف

غرضـا يقاتل دونها أبناؤهـا
بالنبل والخطىّ والأسياف

هتكت بطلحة والزبير ستورها
هـــذا المخبر عنهما والكافى

ويحمل مقاتل من معسكر « على » رضى الله عنه ـــ مصحفا داعيا للسلام ، إلا أن الجند التابعين لعائشة قتلوه فترثيه أمه وهى تعجب لأن أم المؤمنين ترى جماعتها تقتل فلا ترشدها(١) :

لاهمّ إن مسلماً دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمهم قائمة ، تراهم
يأتمرون الغىّ ، لا تنهاهم
قد خضبت من علق لحاهم

ولا تمنع المنزلة الرفيعة لأم المؤمنين شاعراً مسلماً من تنبيهها إلى

---

(١) المرجع السابق صـ ١٨

ما في الحرب من مخاطر على المسلمين فيخاطبها في إجلال(1) :

يا أمنا ، ياخير أم نعلم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم

وبعد مشاهد أليمة تنتهى موقعة الجمل ، لتبدأ وقائع فتنة أخرى أقسى وأشد هولا، إنها حروب « على » رضى الله عنه لجند « معاوية » الذى نازعه الخلافة ، ويتفرق المسلمون شيعاً وأحزابا ، ويلجأ « معاوية » إلى الإغراء ، إنه يطلب من « أيمن بن خريم » قتال « على » مقابل منحه فلسطين ، فيكتب إليه (2) :

ولست مقاتلا رجلا يصلى
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلىَّ إثمى
معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلما في غير جرم
فليس بنافعى ما عشت عيشى

(1) المرجع السابق ص ٦٨
(2) المرجع السابق ص ٧٠

(١٢) الغزل : آثرت ألا أنهي هذا العرض لنماذج من الشعر الإسلامي دون الإشارة لبعض أمثلة من شعر الغزل الذي نظم في الإسلام — في عهد النبوة والراشدين — وقد لا تعد هذه النماذج غزلا بالمعنى المفهوم، إذ هي مطالع لقصائد صيغت في أغراض أخرى، وهي بهذا الشكل مجرد متابعة لتقاليد شعرية جاهلية ، كانت ترى من تمام الجودة والكمال في القصيدة أن تبدأ بالغزل أو الأطلال ، ثم إن هذه النماذج الغزلية لم تخرج في ألفاظها ومعانيها وصورها عما تعوده الشعراء في الجاهلية ، ذلك لقرب ناظميها من العهد الجاهلي زمنيا، ولأن الغزل غرض جاهلي قديم ولم يطرأ بعد — من قيم وتقاليد الشعر الإسلامي — ما يخلع عليه سمات جديدة أو يكسبه طابعا خاصا ، فذلك سوف يحدث بعد سنوات قلائل ، في عصر بني أمية .

إنما قصدت من تقديم هذه النماذج أن أثبت أن الإسلام ورسوله لم يكن يمنع القول في الغزل أو يرفض إنشاده وسماعه وروايته ، ما دام في حدود العفة ، لا يحوي فحشا، أو ينتهك حرمات ، أو يسيء إلى عرض ، أو يخدش حياء، يقول شاعر النبي — حسان بن ثابت — في مطلع قصيدته الهمزية التي نظمها قبيل فتح مكة ورد فيها على أبي سفيان يهجوه ويتوعده ، يقول متغزلا(١) :

عفت ذات الأصابع فالجواء

إلى عذراء منزلها خلاء

(١) الديوان : ص ٧١

ديار من بنى الحسحاس قفرٌ

تعفيها الروامس والسماء

وكانت لا يزال بها أنيس

خلال مروجها ، نعم وشاء

فدع هذا، ولكن ما لطيفٍ

يؤرقنى إذا ذهب العشاء

لشعثاء التى قد تيمته

فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيئة من بيت رأس

يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها ، أو طعم غض

من التفاح هصّره الجناء

ولحسان أيضا فى يوم أحد يهجو ابن الزبعرى (١) :

منع النوم بالعشاء همومُ

وخيال إذا تغور النجوم

من حبيب أصاب قلبك منه

سقم ، فهو داخل مكتوم

(١ ، ٢) الديوان : ص ٢٠٦/٨١

يا لقوم هل يقتل المرء مثلي

واهن البطش والعظام سئوم

شأنها العطر والفراش ويعلوها

لجين ولؤلؤ منظوم

لو يدب الحولىّ من ولد الذرّ

عليها ، أندبتها الكلوم

● ولحسان كذلك من قصيدة فى الفتح(1) :

زادت همومى فماء العين ينحدر

سحّا إذا غرقته عبرة درر

وجداً بشعثاء ، إذ شعثاء بهكنة

حوراء لا دنس فيها ولا خور

دع عنك شعثاء إذ كانت مودتها

نزرا ، وشر وصال الواصل النزر

ويطول بنا الأمر لو تقصينا كل المطالع الغزلية عند حسان ، فلننتقل لمثال آخر عند كعب بن زهير(2) :

---

(1) الديوان : صـ ٨١/٢٠٦

(2) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : صـ ٨٨

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

متيم إثرهـــا لم يجز مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت

كأنه منهل بالراح معلول

شجت بذى شبم من ماء محنية

صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

يا ويحها خلة لو أنها صدقت

موعودها، أو لو أن النصح مقبول

فما تدوم على حال تكون بها

كما تلوّن فى أثوابهـــا الغول

وما تمسك بالوصل الذى زعمت

الا كما تمسك الماء الغرابيل

فلا يغرنك ما منت وما وعدت

إن الأمانى والأحلام تضليل

ونختم هذه الأشعار الغزلية بقول عبدة بن الطبيب[1] :

هل حبل خولة بعـد الهجر موصول
أم أنت عنهـــا ببعيد الدار مشغول

حلت خويلة فى دار مجـــاورة
أهل المدائن ، فيها الديك والفيل

فخامر القلب من ترجيع ذكرتهـا
رس لطيف ورهن منك مكبول

وللأحبة أيام تذكرها
وللنوى — قبل يوم البين — تأويل

* * *

بقى أن نرصد حول الشعر الإسلامى عددا من الملاحظات .

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى صـ ٥١

سادسا : ملاحظات نقدية فنية حول الشعر الإسلامي

ليس من المنطق أن نتوقع انقلابا كاملا ، وتغييرا جذريا فى الشعر العربى عشية ظهور الإسلام ، وإنما هو تطور محدود النطاق فى البداية (١)

ذلك لأن التقاليد الفنية ، والقيم الشعرية ، تكتسب عبر أجيال وأجيال ، وهى تتأثر ببطء ، وتتغير فى تدرج ، ومهل . فلا غرابة إذن أن نجد استمرار بعض الطوابع والسمات الجاهلية فى الشعر الإسلامى ، خاصة وأن اللغة بقيت كما هى فى جوهرها رغم بعض التطور ، وكذا بقى النسق الموسيقى من عروض وقافية على حاله ، وإلى هذا وذاك فإن البيئة الجغرافية ظلت كما هى عند الكثرة من الشعراء الذين أقاموا فى الجزيرة ولم يرافقوا الجيوش .

إن التغيير الدينى والأخلاقى والاجتماعى حق لا مراء فيه غير أن تأثيره على فن الشعر يتم بأناة وريث ، وتظهر نتائجه على مدى زمنى طويل . والصورة العامة للشعر فى صدر الإسلام تقوم على حقيقة حضارية معروفة ، هى أن هناك بالضرورة تداخلا بين فترات التاريخ

---

(١) رصدت هذه الملاحظات على الشعر الإسلامى فقط ، فهى لا تتناول شعر المشركين فى مكة كما لا تتعرض لشعر البادية الذى بقى على حالة الجاهلية ، ولم يتأثر بالإسلام بعد فى عهد النبوة والراشدين.

الحاسمة ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك خط فاصل بين فترة والتى تليها ، وبخاصة حين يتصل الأمر بمقومات نفسية بعيدة الغور فى نفوس أصحابها ، أو بقيم فنية أصبحت تقاليد موروثة لا يمكن الخلاص منها فجأة ، أو الاهتداء إلى غيرها من قيم جديدة »[1] :

إن التغيير المادى فى مظاهر الحياة اليومية ، من سلوك وملبس ومأكل ومشرب، كل ذلك يتسم بيسر وسهولة، ولا يجد مقاومة تذكر، بل ربما وجد الترحيب والتشجيع ولكن الأمر يختلف فى مجال الفن والأدب ، لأنه يتصل بروح الأمة وهويتها - مثل العقيدة تماما - فليس ميسورا أن يتخلى الشاعر عن أسلوبه الفنى ، ويتخذ آخر ، ولا ينتقل من قالب موسيقى إلى سواه ، ولكنه يمزج بين هذا وذاك ، ويجمع بعض الجديد إلى شىء من القديم .

وإذا كان الشعر الجاهلى بسماته الخاصة وأغراضه الثابتة قد توارى بعض الشىء ، وخفت صوته قليلا ، فلكى يفسح المجال لشعر إسلامى أكثر حيوية وملاءمة لما حدث من تغيير هائل فى حياة العرب .

ونحن نلحظ التجديد فى الشعر الإسلامى واضحا بينا من خلال المعانى والأفكار، لأنها تستمد من القيم والمثل التى يؤمن بها الناس ، وهى قد تغيرت تغيرا جذريا بعد الإسلام ، ولذا نرى الشعراء المسلمين يرددون معانى وأفكارا تختلف وتتباين عما كان يتناوله الشعراء

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى : صـ ٦٧

فى الجاهلية ، حسب الأغراض والموضوعات .

وكذلك نتبين الحداثة والجدّة فيما طرقه الشعراء بعد الإسلام من مجالات وآفاق لم تكن معروفة قط أيام الجاهلية ، وهو ما يسمى بالأغراض الجديدة ، وحتى القديم الذى ظل مستمرا طبعه الإسلام بطابعه ، فأكسبه رونقا وبهاء .

وتعرضت لغة الشعر فى العهد الإسلامى ـ متأثرة بالقرآن والحديث ـ لتطور ملحوظ ، وهو ما لفت نظر النقاد والدارسين المتشبعين بالشعر الجاهلى والمعجبين به ، فعدّوا ذلك التطور ضعفا .

أما فى البناء الفنى، أو نسق القصيدة فقد أضاف له شعراء الإسلام لمسات قليلة ، فى حين بقى الإطار الموسيقى على ما كان عليه من وزن وقافية .

ولنستعرض الآن مظاهر التجديد فى كل مجال على حدة :

أولا : المعـــانى والأفـكار : لا ريب أن الشعر الإسلامى قد جمع بين بعض المعانى الجاهلية مما لا يتعارض وقيم الإسلام ومبادئه ، وبين معان إسلامية مستحدثة . وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الشعراء المسلمين لم يوفّقوا تماما فى تمثُّل قِيَم الإسلام ومعانيه ، ولم ينجحوا نجاحا كاملا فى استيحاء الدين الجديد ، والنهل من ينابيعه الثرة ، وأرجع ذلك إلى توزعهم بين عامل الموروث الذى ألفوه وعايشوه طويلا أيام الجاهلية، فكون نسيج عقولهم ، وامتزج بنفوسهم وظل يشدهم للتعبير عنه وتمثله ، وفى المقابل تجذبهم حاجات جديدة

أوجدها الدين الحنيف، وأملتها ضرورة الحياة الإسلامية، وتداخلت هى الأخرى فى أفكارهم ومواهبهم ونسج عقولهم ، وحفزتهم إلى تصويرها والتعبير عنها . فهذا التوزع بين العاملين المتقابلين استنفد طاقتهم الفنية ، وقلل من نجاحهم .

ويمكن أن نضيف أسبابا أخرى، مثل عامل الزمن؛ فالقيم والمعانى الجديدة تتطلب وقتا طويلا حتى تختمر فى الأذهان وتتشربها العقول، ثم عنها الشعر . وكذلك وجود الشعراء المسلمين فى بيئة جاهلية - لاتزال - وأكثر الجمهور المتلقى من الجاهليين فكرا وروحا وثقافة ، وهم لا يستطيعون الانفصال عن جمهورهم ومستمعيهم .

ولا شك أن صدورهم فى كثير من الأشعار عن حافز الرد على المشركين ونقض قصائدهم ، جعلهم يتابعون نفس التقاليد الفنية، ولو خالفوا تلك التقاليد لأخفقوا فى الرد عليهم وإفحامهم . يؤكد ذلك أن الأشعار التى خرجت عن ذلك النطاق ولم يقصد بها هجاء المشركين أو مفاخرتهم ظهرت فيها المعانى الإسلامية واضحة ، كمراثى الشهداء ووصف البلاد الجديدة ، ومعارك الفتوح ، والحنين والغربة ، وما تناول خلقا أو مبدأ إسلاميا .

ورغم كل ما سبق ، فإن كثيرا من الأفكار والمعانى الجديدة عرف طريقه إلى الشعر الاسلامى ، وخاصة فى الأغراض المبتكرة ، وبعضه ظهر فى موضوعات قديمة أيضا .

ثانيا الأغراض والموضوعات : كان الشعر الجاهلي يعكس حياة عرب الجزيرة في انحصارهـــا ومحدوديتها ، فهو يتنقل في ميادين ثابتة لا تتغير :

(١) مدح للملوك والوجهاء الأثرياء ، يشوبه الاسترفاد ويجنح إلى المبالغة ، ويصدر — إلا في النادر — عن ملق ورياء .

(٢) فخر بالنفس والقبيلة ، يدور حول محاور محدودة من النسب والحسب، والشجاعة المتهورة أحيانا، والكرم الذي يبلغ حد الإسراف والسفه أحيانا .

(٣) رثاء يغترف من معين المديح غالبا ، ويغلفه إحساس حاد بالضياع والفناء بسبب الفراغ الديني الرهيب .

(٤) هجاء لا يتورع عن الفحش والإقذاع ، سالبا للمعادح والمفاخر ، مضفيا على الخصم مثالب ونقائص بالكذب والادعاء ، والمبالغة في الذم .

(٥) غزل قـــد يخالطه بكاء الأطلال ، ويقتصر على الوصف الظاهري لمحاسن المرأة الجسمية غالبا، أو المغامرات التي تخدش الحياء، وتمس العرض والخلق .

(٦) وصف الطبيعة حية وصامتة، وهي في البيئة الصحراوية فقيرة قليلة التنوع محدودة الآفاق .

وأخيراً أبيات الحكمة التي قد تأتي ختاما للقصيدة ، وقد لا يتطرق إليها الشاعر .

ثم يشرق الإسلام بنوره ، وتتغير حياة العرب من وثنية مشركة إلى مؤمنة موحدة . ومن قبلية ضيقة إلى إنسانية رحبة عريضة . ومن مادية متدنية إلى روحية سامية رفيعة .

ويتغير الشعر كما تغيرت الحياة ، وتتسع أمامه الآفاق ، وتتعدد الميادين ، وتظهر أغراض جديدة ، وموضوعات لم تكن من قبل معروفة ولا مطروقة ، بل وتكتسب الأغراض القديمة روحا جديدا وبهاء متألقاً .

ويمكن أن نطمئن إلى عدد محدود من الأغراض قد ترك تماما مع إشراق الهدى المحمدي ، وحتى العصر الأموي ، وذلك لتعارضها مع قيم الإسلام وأخلاقياته .

من تلك الأغراض ذكر الخمر ، ووصفها ، والتغني بها ، والشوق إليها ، وبيان أثرها في النفوس ، وتصوير مجالسها وشاربها ، وسقاتها وصناعها وبائعيها ، وكل ما يتصل بها .

ومنها شعر المجون : سواء ما يتعلق بالغزل الفاحش ، واللهو العابث ، والمغامرات المستهترة ، أو مجالس الغناء والقيان والطرب .

ويدخل في هـذا النطاق الشعر الذي يتحدث عن الميسر ولاعبيه ومجالسه ورهاناته .

ثم تأتى المنافرات أو الهجاء القائم على ما يحط من الشرف ، ويخدش الحياء ، ويمزق الأواصر ويورث البغضاء والثارات ، ولو تأملنا فى حكمة تحريم تلك الأغراض بعد الإسلام لوجدنا أنها ليست منافاتها للقيم الدينية فقط ، وإنما لما تسببه وتؤدى إليه من تخريب للنفوس ، وإذهاب للعقول ، كما أنها مضيعة للصحة والمال وهدم للفرد والجماعة ، وهى على الجملة إهانة للإنسان الذى كرمه الله على سائر خلقه حتى الملائكة ، مما يناقض الدعوة الإسلامية لقوة الفرد والجماعة ، قوة مادية ومعنوية ، وكذا الدعوة للتماسك والترابط والأخوة .

ونستعرض الأغراض التى ظلت من الجاهلية، فنظم فيها المسلمون مع إضفاء الصبغة الإسلامية عليها، وتصفيتها مما يتعارض وتلك الصبغة من أفكار أو ألفاظ :

المديح : كان المدح فى الجاهلية تقربا للممدوح طلباً لنفعه واتقاء لضره ، وكان وسيلة للتكسب عن طريق العطايا والهبات التى يمنحها الممدوح مكافأة للشاعر .

وفى النادر القليل يصدر المدح عن عاطفة صادقة وإعجاب حقيقى ، ولكنه غالباً يأتى مراءاة ونفاقا .

فلما جاء الإسلام قل شعر المدح إلى حد كبير ، وربما صار قاصرا على مدح الرسول ﷺ وإشارات قليلة للخلفاء الراشدين ، وكلاهما

ينبع من حب صادق، وإعجاب منبعث عميق، بما في شخصية النبي من سمو وترفع، وما لدى الخلفاء من تقى وورع وطاعة، وتحرٍ دقيق للحق والعدل. وبعد أن كان الحافز في المدح هو التقرب للملك أو للوجيه الثرى، صار قربى إلى الله وطاعة له، فالرسول وخلفاؤه يمثلون رموزا للإسلام وتجسيدا لمبادئه وتطبيقا لأوامره، ولذا فإن مدحهم ليس مدحاً لذات الشخص - وإن كان خليقا به - ولكنه في المقام الأول مدح للمعاني والمبادىء التي يمثلها، ثم تفرع عن المدح الفردي مدح الجماعة الإسلامية، وتمجيد للدعوة الجديدة، ويرمز الجماعة الإسلامية بالمهاجرين تارة وبالأنصار أخرى، وبهما معاً أحيانا.

وهذا المدح الجماعي يبرأ من المجاملة، ويبتعد عن المبالغة، وهو يهدف بالدرجة الأولى إلى إعلاء شأن الدين ورفع لوائه، والإشادة بالمسلمين الأوائل، الذين حملوا عبء الجهاد في الأيام الصعبة من بداية الدعوة، حين كان الأعداء كُثُرْ، والقوة محدودة، والنصر عزيز المنال.

ويمكن أن نجمل خصائص المدح أيام النبوة والراشدين في :

(١) صدوره عن عاطفة قوية وإعجاب صادق بالرسول، وأصحابه وخلفائه، وبالجماعة الإسلامية من مهاجرين وأنصار، فلا نفاق أو رياء، ولا ملق أو تقرب، ولا شبهة للكسب والمنفعة.

(٢) صفات الممدوح، أو مواضع المدح، تجمع بين قليل مما عرف في الجاهلية كالشجاعة والكرم والمروءة والنجدة، ثم تضيف

إليها مناقب وصفات إسلامية معروفة ، كالجهاد في سبيل الله ، والتطلع للشهادة ، ونشر الدين وإعلاء كلمة التوحيد ، وكذلك نبل الأخلاق ، وطاعة الله ورسوله ، والحرص على الجماعة الإسلامية والسعي لخيرها ، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، والبعد عن نواهيه وما يغضبه .

(٣) ذكر الحقائق والوقائع دون مبالغة أو تهويل : لقد كان سجل البطولة الإسلامية ، ومفاخر المسلمين حافلا زاخراً ، وما فيه من حقائق يفوق تصور الخيال ، وروعة المبالغة .

(٤) استخدام لغة سهلة تتضمن مفردات وعبارات دينية إسلامية ، وتنأى عن الكلمات والعبارات الجاهلية .

الهجاء : اتسم الهجاء في الجاهلية بالاعتداء على الأعراض والحرمات ، وسلب الشرف ، والعيب في الأنساب والأحساب ، وكذلك الذم باللفظ الجارح ، والمعنى القـــارص ، فكان الناس يضطرون إلى شراء ألسنة الهجائين ، وتجنب إثارتهم ، كما كان يحدث مع الحطيئة . وأحيانا يضطر المرء إلى استئجار شاعر للرد على من يهجوه .

ثم بعث الرسول عليه السلام بتعاليم الدين السمحة و خلقه الرفيع ، يحذر من التنابز بالألقاب ، ومن الغيبة والنميمة ، و من التباغض والتخاصم ، ودعا إلى الأخوة والمحبة والتسامح ، وطالب المجتمع المسلم بأن يكون جسدا واحدا مترابطا ، ويكون أفراده أعضاء في الجسد ،

يؤلم لجميع ما يحيق بالواحد ، وحينئذ كف الشعراء المسلمون عن الهجاء تأدبا بأدب الإسلام ، إلا أن شعراء الشرك فتحوا نيران ألسنتهم على النبي الكريم وعلى المسلمين ـ مهاجرين وأنصارا ـ فأذن الرسول ـ ﷺ ـ للشعراء الأنصار برد الأذى ، والدفاع عن النفس والدين ، فالهجاء من المسلمين كان اضطرارا وحالة من حالات الدفاع .

فلما فتحت مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، توقفت المعارك الكلامية بين المشركين والمسلمين ، واختفى الهجاء تقريبا بقية عهد النبوة والراشدين ، وكان الخلفاء رضوان الله عليهم يعطون للشاعر الهجاء ما يكف لسانه عن إيذاء المسلمين ، ويعاقبون من يستمر في الهجاء ، فلما جاء بنو أمية تغير الحال .

ونستطيع تلخيص سمات فن الهجاء الذي مارسه المسلمون فيما يلي :

(١) لجأ إليه شعراء الإسلام دفاعا عن النفس والدين ، بعد أن تجاوز المشركون فيه الحدود ، وصار الصمت ضعفا .

(٢) ابتعد عن الفحش والإقذاع ما أمكنه ، وركز على جحد المشركين حق الله وقدره ، وكفرهم به ، وتكذيبهم نبيه .

(٣) كان حسان يستغل ما في أنساب المشركين من هنات ، وقد يستخدم في أحيان قليلة ما يحط الشرف ويخرج عن قيم الإسلام ، وعذره في ذلك حاجته إلى إفحام الكفار ، ورد سهامهم وإخراس ألسنتهم .

(٤) كان فيه هجاء الأشخاص الفردى ، وهجاء القبائل الجماعى ، وهو فى كلا الحالين رد على هجاء سابق للمشركين .

(٥) لم تخصص للهجاء قصائد مفردة ، ولكنه يأتى مختلطا بأغراض أخرى كالفخر ووصف المعارك ، أو الحرب الدعوية .

(٦) وهو مثل بقية فنون الشعر الإسلامى تتناثر فيه كلمات إسلامية ومعان دينية بنسب مختلفة .

الفخر : كان الشاعر الجاهلى بطبيعته تياها معتدا بنفسه وجنسه يكثر من الفخر فى قصائد خاصة بغرض الفخر ، وفى أبيات عبر قصائد نظمت لأغراض أخرى ، كان يزهو ويباهى بما لديه مما يستحق الفخر والمباهاة ، وقد يختلق ويتخيل ما يفخر به ، أو يفخر بما سوف يفعله وما سيكون عليه ، يفخر بشخصه وبجماعته القريبة وقبيلته وعشيرته ، ثم يتمادى ويفخر بأصله العربى . وكان مناط الفخر أولا هو الشجاعة التى تصل إلى التهور ، والقوة التى تدفع للعدوان ، والجهل الذى يجر إلى الظلم ، ثم الأخذ بالثأر ، وعدم الصبر على الضيم والذل .

وكذلك الفخر بالحسب والنسب ، وكرم المحتد ، ونقاء الأصل والعصبيه القبلية . وتأتى المواقع والأيام التى شهدها أو شهدتها قبيلته وحققت فيها انتصارات ، ثم يباهى بقيم أخلاقية وصفات حميدة ، كالمروءة والنجدة وإغاثة الملهوف ، والعفة وإكرام الضيف ، والترفع عن الصغائر ، ولا ينسى أن يفاخر بلهوه وعبثه من مغامرات عاطفية

وتشبيب بالنساء ، وشرب للخمر ومجالس الغناء والمجون والخروج للصيد .

ومن مكة - الأرض الحرام - يشرق فجر جديد للعالم أجمع ، ويكون العربي هو المثل والقدوة ، وهو المبلغ والداعي ، ولا يقف الدين الحنيف من نزعة الفخر العربية الإنسانية موقف التعنت والرفض المتصلب ، ولكنه كعادته يتخذ منها موقف التوجيه والتهذيب ، فيفخرون بأمجاد أسمى وأعز كالتسابق إلى الإيمان بدين الله ومفارقة الشرك وكذلك المبادرة بالهجرة طاعة لله ورسوله ، أو نصرة الدين والجهاد في سبيل الله . وأصبح البلاء من أجل العقيدة وطلب الشهادة مناط فخرهم الأول ، ثم يأتي الزهو بنصر الله وتأييد الملائكة .

وفي المجال الأخلاق تكون التقوى ، وطاعة الله والرسول ، ثم اجتناب المحرمات والبعد عما يستنكره .

وأخيرا ما رضى عنه الإسلام وأبقاه من طباع الجاهليين وأخلاقهم ، كالكرم وقرى الضيف ، والنجدة وإغاثة المستجير ، والتعفف عما لا يملك ، والشجاعة في الميدان .

واستعاض عن الفخر بالأصل والحسب فخرا بالانتماء إلى الإسلام الحنيف ، وعن القبيلة والجنس اعتزازا بالنبي وجماعة المسلمين والصحابة المجاهدين .

وبذا يمكن استخلاص سمات الفخر الإسلامي فيما يلي :

(١) التقليل ما أمكن من الفخر والمباهاة لأن الإسلام يدعو إلى

التواضع ، ويرى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وأن خيلاء الفرد وكبره معصية ومكروه .

(٢) ما بقى من فخر طبعه الإسلام بطابعه، فصار مناطه ما يتصل بالدين من الإيمان والتقوى ، والقتال حتى النصر أو الشهادة فى سبيل الله ، وما يتصل بجماعة المسلمين من طاعة الرسول والتآخى والسعى لخير الجماعة،وأخيرا ما يتعلق بالخلق الرفيع سواء ماكان جاهليا أقره الإسلام أو ما جد مع الدين القويم .

(٣) انتفى من الفخر كل ما يتعلق بالحسب والنسب ، وما يثير العصبية القبلية ، وحل محله شرف الانتماء للدين ولجماعة المسلمين .

(٤) الفخر بالنفس وبالجماعة ممكن فى إطار إسلامى لا يهدد تماسك المسلمين ، ولا يحيى الضغائن ، كما فعل « حسان » فى زهوه بالأنصار لما قدموه من نصرة الرسول ، واستضافة المهاجرين ، والدفاع عن الإسلام ، وكذا ماكان من فخر « نافع بن قطبة » بقومه بنى تميم لمسارعتهم إلى الدخول فى طاعة الرسول والهجرة ومناصرة الإسلام مما يعزز ماضيهم المجيد فى الجاهلية .

(٥) تخلص فخر الشعراء المسلمين من المبالغة وتجاوز الحد مكتفيا بذكر الحقائق ، والتعبير عن الوقائع .

(٦) استخدام لغة سلسة تتضمن ألفاظا وجملا ذات صبغة إسلامية، وتبعد عن التقعر والغرابة .

الرثاء : يعد الرثاء من أقدم فنون الشعر العربي ، وهو يقترب من المدح في كونه يعدد صفات العظمة والبطولة والكمال في المرثى - كما في الممدوح - ثم يضيف الجزع الشديد لموته ، والخسارة الشخصية أو القبلية أو العامة الناجمة عن فقده .

ولأن العرب في الجاهلية كانوا غير موحدين ، ولا يؤمن أغلبهم بالبعث والحساب ، لذا كان رثاؤهم يتسم دائما بالفجيعة والحسرة الشديدة لفقد الميت ، ولا يحوى أية إشارة إلى مصيره الأخروى .

وإذا كان قتيلا في حرب ، احتلت الدعوة للثأر مكانها ، وكثر الحديث عن روحه القلقة الهائمة حتى يثأروا له .

ثم سرت الروح الإسلامية في فن الرثاء ، إبان بعثة الرسول عليه صلوات ربه وسلامه ، وانفجار الصراع بين الإسلام والشرك ، وتتابعت الغزوات في عهد النبي إلى أن فتحت مكة ، وبدأت الفتوح ونشر الدين في آفاق الأرض ، وهنا يتسم الرثاء على يد الشعراء المسلمين ببيان بسالة الشهيد في حومة الوغى ، وحرصه على إعلاء كلمة الله ، وإصراره على النصر أو الاستشهاد ، ثم ينتقل الشاعر في رثائه إلى بيان ما أعد للشهداء لدى الله من نعيم الخلد ، وعلو المنزلة وكونهم أحياء عند ربهم يرزقون . ولئن كان المشركون يفتقدون سمو الغاية من القتال ، ويشعرون بعبثية الموت في المعركة ، اللهم إلا ما تواضعوا عليه من الحرص على الثبات والشجاعة - إذا كانوا هم كذلك - فإن المسلمين قد توافر لهم نبل المقصد وشرف الغاية ، وأى هدف أسمى من الجهاد في سبيل الله ، والدعوة لدينه والاستشهاد دفاعا عنه ؟

لذلك ظهرت فى الرثاء سمات الصبر والاحتساب ، والرضى بقضاء الله ، والامتثال لحكمه ، والاستبشار بجنته وثوابه ، وما وعد به الشهداء والمتقون ، فخفف هذا من الجزع الشديد ، والأسى الفاجع على الفقيد ، وحل الصبر على البلاء واحتساب الأجر عند الله محل اليأس والكمد . وحتى فى ظروف الموت العادى أصبح الرثاء مختلفاً كذلك لأن الميت مسلم موحد ، أطاع الله ورسوله ، وأدى فرائض دينه ، وعمل بأوامر ربه واجتنب محارمه ، فثواه الجنة ، ومن هذا أحست الخنساء بالحزن مضاعفا على أخيها صخر بعد أن هداها الله الإسلام : « كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار » .

وكل هذا الجديد أضيف إلى ما أقره الإسلام فى الرثاء الجاهلى من بيان عظمة الميت أو الشهيد ، ومكانته بين قومه وصفاته الأخلاقية النبيلة .

وخلاصة ما يقال عن الرثاء الإسلامى :

(١) احتفظ ببعض السمات الجاهلية مثل : بيان العظمة الإنسانية والخلقية والمكانة الاجتماعية للفقيد ، وكذلك الحزن لفقده .

(٢) استبدل بالجزع المهلك ، والأسى الفاجع ، الصبر والاحتساب والامتثال لقضاء الله .

(٣) فى حالة الاستشهاد يصبح الفرح بالجنة ورفعة المنزلة عند الله هو الطابع الغالب على الرثاء .

(٤) يضاف إلى ذلك ذكر ما أبداه الشهيد من بلاء في سبيل الله ودفاع عن الدين وزود المشركين .

(٥) وإذا لم يكن الفقيد من الشهداء فهو مسلم عاش حياته مطيعا لربه محبا لنبيه ـ عليه السلام ـ عاملا بكل ما أمر به ، مبتعداً عن كل ما نهى عنه ، ولذلك فإن الجنة مقره إن شاء الله .

(٦) حلت كلمات الصبر والرحمة والأجر والاحتساب ، ثم الشهادة والجنة والجهاد في سبيل الله ونصرة الدين ، بدلا من ألفاظ الهلاك والقتل والجوع والفقد والثأر وشفاء الغليل .

شعر الحماسة : مرت بنا أثناء استعراض نماذج من الشعر الإسلامى ثلاثة أغراض هى : وصف المعارك ، والحرب النفسية ، ثم الإقدام على الجهاد والفرح بالشهادة ، وهى جميعا تنضوى تحت ما عرف فى الجاهلية بشعر الحماسة مع الاحتفاظ فى الذهن بالفارق بين مفاهيم الجاهليـة والإسلام ، وشعر الحماسة مصطلح قديم يطلق على كل ما يتصل بالقتال سواء فيه وصف الاستعداد السابق للحرب ، من خيل وأسلحة وجند ، أو وصف ساحة الحرب وشجاعة الفرسان ، أو التخزيل عن المقاتلين بتخويف العدو من قوتهم وجسارتهم . وكل هــــذه المجالات ظلت مطروقة بكثرة من الشعراء المسلمين ، بعد أن خلعوا عليها من سمات الدين وروحه ما أعادها خلقا جديداً مثل :

(١) فى بيان الأسلحة والمعدات ذكر الشعراء الإسلاميون

أسلحتهم الحربية المادية ، وأضافوا إليها أسلحة جديدة منحها إياهم الدين الحنيف ، كالتقوى والإيمان والصبر ونبل الهدف من القتال ، وتأييد الله وملائكته ووعده المؤمنين بالنصر ، ما داموا صادقين صابرين ، ثم الثبات في الميدان لتحقيق النصر أو الفوز بالشهادة ، بل كان حرص المسلم المجاهد على الاستشهاد أشد من حرصه على الحياة ، وذلك أدعى لفزع الكفار من أى سلاح فاتك .

(٢) في وصف المعارك وبسالة المجاهدين تبدو لنا ألوان من البطولة أقرب إلى المعجزات ، وفي تصوير السعي للجهاد والإقدام على الشهادة تحكى قصص خيالية وخوارق يصعب تصورها ، ولكنها جميعاً حقائق ووقائع لأشخاص معروفين منحهم يقين العقيدة وصدق الإيمان قوى لا تفل .

(٣) في مجال الحرب النفسية ، وهى أناشيد حماسية تردد قبل المعركة تحث المجاهدين على الصبر والإقدام ، وتستنفر الأعوان النجدة والمناصرة ، وتدعو للثبات ، وترهب الأعداء بما تصفه من عدة المجاهدين وعددهم ، وتفزعهم بما تصوره من جسارة المسلمين وعزيمتهم وفيما بعد الإسلام يكون الاعتداد بتأييد الله والملائكة والنصر الذى وعد به المجاهدون ، وبذلك يكون الترهيب والتخويل بالسلاح المادى والمعنوى ممثلا فى قوة الله التى لا غالب لها ، وتأييده الذى لا يعدله تأييد .

(٤) اختفت كلمات الثأر والانتقام ، وتوارى التعصب القبلى

بالحق والباطل ، وظهرت مفردات وعبارات إسلامية جديدة كالجهاد والثبات والشهادة والجنة ، ونصرة الدين والرسول وسلاح الإيمان والتقوى ، وظهور الحق ودحر الباطل ، والانتساب للإسلام وليس للجنس أو القبيلة ، والقتال لتحقيق غاية سامية وليس ثأراً أو مجداً شخصيا .

الغزل والنسيب : يرى عدد كبير من الدارسين أن الغزل كان من الأغراض التي هجرها الشعراء الإسلاميون ، لكني لست مع هذا الرأي ، حتى لو حددنا فترة الترك بعصر النبوة والراشدين ، ذلك لأننا نلتقي بنماذج عديدة للغزل إبان تلك الفترة ، وخاصة مطالع القصائد في أغراض مختلفة ، وكذلك ذكر الدكتور عبد القادر القط قصيدة مثبتة في « الأمالي » للشاعر : « مضرس بن قرظ » ، وأبيات « لعبد الله بن علقمة » ، ثم مقطوعة « لعبد بني الحسحاس » ، وكلها شعر غزلي رقيق . والأقرب للدقة أن نقول : إن الغزل كغرض قائم برأسه ، تخصص له قصائد كثيرة كاملة ، ترك لسنوات في أول العهد الإسلامي لكنه ليس الترك العامد ، باعتباره محرما أو محظوراً وإنما هو الإهمال والتراخي بسبب الانشغال بأمور أخرى ، فلم يؤثر عن النبي عليه السلام أو خلفائه رضي الله عنهم ، ما يفيد الحظر أو التحريم أو حتى الكراهة ، لقد سمع الرسول قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » وفيها مقدمة غزلية طويلة ، فلم ينكرها عليه ، وسمع ﷺ لحسان بن ثابت

قصائد عديدة تبدأ بالغزل ، ولم يرو عنه إنكار أو إعراض ، وقال الحجاج : دخلت المدينة ، فقصدت إلى مسجد النبي ﷺ ، فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه ،فقلت هكذا : أفرجوا لى عن وجهه ، فأفرج لى عنه ، فقلت له إنما أقول هكذا :

طاف الخيالان فهاجا سقما

خيال أروى ، وخيال تكتما

تريك وجهاً ضاحكا ومعصما

وساعداً عبلا وكفا أبرما

فما تقول فيه ؟ . قال : قد كان رسول الله ﷺ ينشد مثل هذا في المسجد فلا ينكره »[1]

فالغزل على إطلاقه ـ ومنه مطالع القصائد ـ موجود في العصر الاسلامى خلال البعثة النبوية وعهد الراشدين، وسوف يتسع ، وتكثر نماذجه وتستقل به قصائد عديدة ، بل ويصبح باباً ضخما من أبوابه الشعر الأموى ، ويتفرع لأنواع مختلفة بين عذرى عفيف ، وحسى جرىء . ويفرغ له شعراء يقصرون جهدهم عليه مثل عمر بن أبى ربيعة ، وذى الرمة وابن قيس الرقيات .

وتتمثل سمات الغزل عبر عهد النبوة والراشدين في :

---

(١) العقد الفريد : جـ ٣ صـ ١٠٥

(١) نماذج الغزل فى العهد النبوى وفى حكم الراشدين تتمثل فى قصائد ومقطوعات قليلة ، وفى مطالع كثير من القصائد لأغراض مختلفة .

(٢) لم يعترض الاسلام على الغزل ولم يحرمه ، ولم يشكره الرسول ﷺ ، ولكن الشعراء المسلمين شغلوا عنه لأنه مرتبط بالفراغ والدعة ، وهم كانوا مشغولين بما هو أهم من نشر الدعوة فى آفاق الأرض والجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الدين .

(٣) يفهم ضمنا أن الاسلام بما بثه فى النفوس من قيم أخلاقية سامية ، وحماية للحرمات وحفاظ على الشرف ، وبما أسبغه على المرأة من تكريم وإجلال ، وبما أشاعه من العفة والحياء ، لكل ذلك فقد كره الغزل المتهتك ، والتشبيب الحسى المستهتر ، وما كان خادشا للحياء أو معتديا على الأعراض والحرمات ، ولكنه رضى عن الغزل الرقيق العفيف ، الذى يعبر عن احترام للمرأة وحفاظ عليها وإعزاز لها « ونستطيع أن نجد من أمثال هذا الشعر كثيرا من المقطوعات فى كتب المختارات والتراجم ، أغلبها لشعراء مقلين ، كانوا يقولون الشعر فى وقدة انفعال خاص ، استجابة لحدث معين فى حياتهم ، على أن من بين الشعراء المعروفين أيضا من نجد لهم أمثال تلك المقطوعات البالغة الرقة فى أسلوبها وعواطفها ، وكأنها لشاعر طال عهده بالحضارة واللين »(١)

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى : د . عبد القادر القط ، ص ٦٦

(٤) لا نستطيع القول بأن الغزل تعرض لتطور كبير فى أول العصر الاسلامى ، اللهم إلا ما أشرنا إليه من بعده عن الحسية ، والاستهتار والعبث ، وميله للرقة والعفة ، وحرصه على ما يرضى الخلق القويم وعلى الأعراض والحرمات لكن التطور الحقيقى سيظهر بعد ذلك فى عهد الأمويين .

الأغراض الجديدة : بالإضافة لما أدخله الإسلاميون من سمات جديدة ، وطوابع مستحدثة على الأغراض المطروقة فى الجاهلية ، فإننا نلاحظ أثرهم التطويرى أيضا متمثلا فى ابتكار أغراض وموضوعات لم تعرف من قبل ، وهى :

١ - وصف البلاد الأخرى : عاش العرب قرونا فى شبه الجزيرة لا يغادرونها ، إلا نادرا ، وفى رحلات محددة المسار بهدف تجارى مسبق ، وكان القائمون بها تجاراً ، وأصحاب رؤوس الأموال ، فلا شأن لهم بأحوال البلاد وصفات أهلها . وأحيانا يقوم أحد الشعراء برحلة إلى ملك أو عظيم لمدحه واسترفاده إلا أنه لا يلتفت غالبا للبلاد وأهلها ، فهو قد أعد الشعر مسبقا وهو يرغب فى تحقيق هدف الرحلة والعودة سريعا . فخلاصة القول أننا لا نجد نماذج لوصف البلاد وسمات السكان خارج شبه الجزيرة قبل الإسلام .

فلما بعث النبى عليه السلام مبشرا وهاديا للإنسانية كافة ، وبعد تثبيت دعائم الإسلام بفتح مكة ، بدأت حركة نشطة لنشر الدين

وهداية الناس، ولئن كان الأمر قد اقتصر فى عهد الرسول على غزوات سريعة محدودة الأثر والبعد، إلا أنها كانت إشــــارات بدء، وأمثلة تحتذى ، ثم تبعتها غزوات ضخمة بعيدة المدى واسعة الأهداف .
وفيها انطلقت الجيوش الإسلامية شرقا وغربا ترفع راية الحق والهدى ، وتحقق النصر الذى وعد به الله سبحانه ، ووعده الحق .
واطلع العرب على بلاد تختلف عن بلادهم كل الاختلاف ، سواء فى البيئة الطبيعية أو فى نظم الحيـــــاة وعوائد البشر ، أو فى درجة الحضارة والتقدم المدنى .

ولم يقصر الشعر الإسلامى فى وصف تلك البلاد ، والتعريف بأهلها وطباعهم وسلوكهم وطرق معايشهم وملابسهم ، وكذلك مبانيهم ومعالم حضارتهم ، وبإيجاز : حاول أن ينقلنا إلى تلك الدنيا الجديدة لنراها كما يراها ونحس بإيقاع الحياة فيها كما أحس .

ونستخلص ملامح هذا المجال الشعرى الإسلامى فى :

(١) لأن هذا الغرض جديد وناشىء فنماذجه محـــدودة ، وهو لا يتكىء على تراث سابق ، ولكنه يبدع تقاليده الخاصة ويتخذ لغته المناسبة .

(٢) هدفه الأول هو التعريف بالبلاد وما يميزها من ظواهر طبيعية وحضارية ، ولذلك يلتقط الطرائف اللافتة مثل البرد القارص، أو الحيات الكثيرة أو الأفيال المشاركة فى الحرب ، ثم عروش الملوك

والكنائس الضخمة ، ويتطرق أحياناً لملابس الجند وتصرفاتهم .. وهكذا .

(٣) يغلب عليه طابع الدهشة والتعجب واللقطات السريعة العابرة دون تأمل أو استبطان للظواهر .

(٤) لغته سهلة بسيطة ، فلا تقعر ولا كلمات نادرة ، ولا ألفاظ ضخمة غريبة أو أساليب معقدة .

(٥) يخلو من التشبيهات والصور المألوفة : لأنه يعرض مناظر غير تقليدية ، ويحفل بطرائف مستحدثة لا نظير لها ، ولذا فهو لا ينهل من معين سابق ولا ينسج على منوال قديم .

٢ — الحنين والغربة : من أرق وأعذب ما أضافه شعراء الإسلام إلى الديوان العربي ، تلك النغمات الرقراقة الحارة المتدفقة ، التي سرت تحمل الشوق والحنين من المجاهدين المغتربين إلى وطنهم وأهلهم ، ثم ترجع حاملة اللهفة والتشوق والحنان من الأهل والوطن لفلذات الأكباد البعيدة ، وحقيقة أن بعض الدارسين يرى المطالع الطللية لبعض القصائد الجاهلية صوراً من الحنين ، يتذكر الشاعر ماضيه أيام كان والمحبوبة في منازل متجاورة ، فيحن لتلك الأيام ويزور آثار المنازل وأطلالها ، سائلا عن أهلها الراحلين ، متشوقا لذكرياته وسعادته الضائعة .

لكن البون شاسع بين الحنين والغربة فى العصر الإسلامى وبين تلك المطالع ، لقد صار فنا محدد القسمات واضح المعالم ، يختلف كماً وكيفاً ، وله سمات ظاهرة يمكن إيجازه فى :

(١) أصبح مقاطع كبيرة فى بعض القصـــائد ، كما اختصت به قصائد كاملة طويلة ، وتعددت نماذجه وكثرت ، خاصة حين امتدت الفتوح الإسلامية إلى أقاصى الأرض شرقا وغربا مع نهاية عهد الراشدين حتى الأمويين .

(٢) حفز إليه إحساس حاد بالغربة ، لأن الشاعر المسلم انتقل مع الجيوش لبلاد شديدة الاختلاف عن وطنه، وعاشر أناساً لايشبهون أهله ، ولا يتكلمون لغته ، وكذا انبعث نتيجة حنين فياض للوطن بأكمله ، وليس على أو إقليم أو ربع ، حنين للسماء والأرض والمناخ والنبات والحيوان والطير ، حنين للخيام والنوق والشياه ، للرياح والبرق والمطر ، اشتياق عارم للأهل والأحباء والناس - كل الناس - فى ذلك الوطن .

(٣) ويأتى الحنين والتشوق من اتجاهين متراسلين :

حنين من الأهل للمجاهدين الأبطال ، الذين خرجوا يعلنون كلمة الحق وينشرون التوحيد ويشيعون الإيمان ، ثم حنين من المغتربين يبعثونه للأهل وللوطن بكل مفرداته وذراته وظواهره .

(٤) وكلا النوعين يخرج فى نغمات رقيقة وإحساس دافق فياض ومشاعر حارة صادقة .

(٥) وقل ما شئت عن جمال اللغة وسلاستها وموسيقيتها وعن عذوبة الألفاظ ورقتها ودقة تعبيرها ، وعن اتساق الأسلوب وروعته وبلاغته .

(٦) بعد أن كان الشاعر المسلم الحنان يكتفى ببث أشواقه فى مناجاة مباشرة للأحباب والوطن والماضى السعيد ، بدأ يتخذ وسائل فنية للتعبير عن الكم الهائل من المشاعر الثائرة ، فكانت الحمامة رمزا ، يفصح من خلاله عن أشواقه وتحنانه ، كما يقارن بين حنينها وحنينه ، وشجوها وشجوه ، فيكون هو الأشد لوعة والأعمق لهفة ، لأنها تسجع بلا عبرات وهو يبكى بدمع غزير ، وراح يلتفت كذلك إلى نباتات وأشجار وطيور كان يراها فى وطنه ، فيحتفل بها ويحن إليها تعبيرا عن حنينه إليه .

٣ ـ المعانى الإسلامية : وهذا هو ثالث الميادين التى فتحها الشعر الإسلامى ، ويعد أرحبها وأكثرها تنوعاً ، والشاعر العربى متمرس منذ القدم بالحديث عن القيم الأخلاقية والمثل ، وهى إحدى مجالات فخره واعتزازه .

ولا جدال فى أن العرب ـ رغم جاهليتهم ـ كانوا على مستوى خلقى رفيع ، ويؤمنون بقيم ومبادىء سامية كريمة ، مثل الوفاء بالعهد وإجابة الداعى ، وقرى الضيف ، والجود للسائل ، ونصرة المظلوم ، كانوا يؤمنون بمثل تلك القيم ويدعون إليها ، فلما هداهم الله للاسلام ثبتوهم

عليها ، وأمدهم بالمزيد من الصفات العالية والمثل الشريفة بين دينية وأخلاقية .

أما عن صياغة هذه المثل والأخلاقيات شعرا ، فقد اعتاد العرب استغلال طاقات الشعر وإمكاناته فى التهذيب والدعوة لما يريدون من مبادىء وقيم ، وإلى ذلك يشير أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى

بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

وكان ذلك فيما يعرف بشعر الحكمة الذى يصاغ فى أبيات تختم القصيدة أو تتخللها ، ولكنه ليس تقليدا متبعا عند كل الشعراء ، وليس فى كل القصائد ، ومن هنا فلا يمكن اعتباره غرضا قديما جدده الإسلام وأضاف إليه وإنما هو غرض إسلامى محض ابتكره المسلمون ، خاصة وأنهم نظموا قصائد كاملة طويلة ومقطوعات متعددة منه . ولعل قيام الإسلام - قرآنا وسنة - على الدعوة والموعظة يقول تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾(1) كما يقول سبحانه ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾(2) .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (3) « إن الدين النصيحة

---

(1) سورة النحل : آية ١٢٥

(2) سورة لقمان ، آية ١٣

(3) لسان العرب ، ج ٦ ص ٤٤٣٨

لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، كما يقول عليه السلام « الدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان »(1) .

لعل ذلك كله كان باعثا للشعراء الإسلاميين على الإفادة بما في الشعر من قدرة على التأثير والجاذبية ، والبقاء في الذهن ، واستغلال ذلك لنشر الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وتهذيب الشخصية ، والسمو بالنفس وترقيق الطبع ، فكثرت النماذج الشعرية في هذا المجال بين قصائد طوال ، ومقطوعات قصار ، وأبيات متفرقة ، وتتلخص ملامح هذا الغرض في النقاط التالية :

(1) أغلب نماذجه تندرج تحت ما يعرف بالشعر التعليمي إذ يقوم على الدعوة لمبادىء الدين ، ونشر قيمه وتعاليمه ، كما يهدف إلى إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وبث الفضائل .

(2) يتجسد في أبيات عبر القصائد المخصصة لأغراض أخرى ، كما يتمثل في مقطوعات وقصائد خصصت له .

(3) يستمد معانيه وأفكاره من مبادىء الدين الحنيف ، كطاعة الله ورسوله والتقوى والتوبة عن الذنب ، وبر الوالدين والوفاء بالعهد .. الخ ، وكذلك من القيم الأخلاقية العليا ، مما عرفه العرب قديما ودعا إليه الإسلام أيضا كالكرم والنجدة والإخاء وحق الجار . .

(4) يتخذ لغة سهلة ، ووسائل فنية بسيطة وقد يكتفي بالنصح المباشر ، وتكثر فيه المفردات والعبارات المقتبسة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

---

(1) فيض القدير : جـ 3 ص 537 حديث رقم 4247

ثالثاً : اللغة والأساليب : في مقدمة الملاحظات التي تستلفت الدارس للشعر الاسلامي تأثره بالقرآن الكريم تأثراً قوياً ، أو أسلوبياً بعد التأثر بالمعاني والأفكار . يتناول الدكتور شوقي ضيف ذلك الأثر في اللغة والأدب عامة فيراه ماثلا في مجالات ثلاث : أولها : جمع العرب على لهجة قريش ، بعد تهذيبها واستكمال ما ينقصها من مفردات . وثانيها : الارتقاء بالعربية إلى منزلة لا تنازعها فيها لغة أخرى ، حين جعلها لغة دين سماوى للبشر كافة ، فوهبها معاني وألفاظا لم تكن تعرفها قبلا ، كما وهبها الخلود الدائم والحياة المتجددة المتألقة بلا ضعف أو تحول أو موت يتهددها . وثالث آثاره : أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع ، لترى كيف أن القرآن اختط أسلوبا جزلا له رونق وطلاوة مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه ، وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى وكأنما رسم له رسما ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف»[1] وهذا الأسلوب الرائع الجديد أسر العرب بسحره ، وملك أفئدتهم ببيانه وجماله فنسجوا على منواله ، وترسموا آثاره ، واهتدوا بهديه ، يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة ، وحسن مخارج الحروف

---

(١) العصر الاسلامي : د. شوقي ضيف ص ٣٣ ، ٣٤ .

فيه ، ودقة الكلمات فى موضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة والحلاوة »[1] :

ويعقد الأستاذ ظافر القاسمى موازنة بين الشعر الجاهلى ممثلا فى أحد نماذجه الشهيرة — معلقة امرىء القيس — وبين الشعر الاسلامى مبينا الفارق الكبير ، مشيراً إلى كلمات بارزة فى الأبيات التى أوردها ، يقول «كان أسلوب الشعر الجاهلى متسقا مع ما فى حياة الصحراء من شظف ، ومع ما فى طبيعتها من جفوة ، ومع ما فى تقاليدها من قسوة : فخامة فى الألفاظ ، وغرابة فى انتقائها ، وصعوبة فى نطقها ، وتنافر فى تركيب حروفها ، عسيرة عسر الحياة فيها ، جزلة فى تركيبها[2] » ويعطى الدارس أمثلة من معلقة امرىء القيس على ما يقول من تنافر حروف الكلمات وصعوبة نطقها :

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات إلى العلا
تضل العقاص فى مثنى ومرسل

* * * *

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل

(١) العصر الاسلامى : د. شوقى ضيف ص٣٣ ، ٣٤ .

(٢) نظرات فى الشعر الاسلامى : ظافر القاسمى ص ١١

* * * *

مرفرفة بيضاء فين مفاضـــة

ترائبها مصقولة كالسجنجل

* * * *

فأضحى يسح الماء حول كتيفة

يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وبعد استعراض أمثلة متنوعة من الشعر الاسلامى يقول :
«وأما الشعر الاسلامى فقد تحرر من صفات أسلوب الشعر الجاهلى تحرراً ظاهراً ، وأصبح له طابع جديد يتسم بالوضوح والسهولة مع المحافظة على جزالة التركيب»[1] ويقول الدارس فى موضع آخر : تجد أن الألفاظ قد تغير استعمالها ، وتجددت موسيقاها ، فلست ترى «العقنقل والمتعشكل والسجنجل والكنهبل» وأمثالها ، لا رويا للقافية ولا من كلم القصيد ، كذلك فإن تركيب الألفاظ وضم الكلمة إلى أختها ، الذى هو أصل البلاغة فى رأى الجاحظ — معلم العقل والأدب — قد طرأ عليه تطور ظاهر»[2] وهو يرجع هذا التطور الأسلوبى فى الشعر الاسلامى إلى أثر القرآن الكريم الذى فتن العرب ببلاغته وسحرهم بفصاحته .

(٢،١) نظرات فى الشعر الإسلامى : ظافر القاسمى ص ١٩ .

وواضح من رأى الدارسين الفاضلين أن التأثير اللغوى القرآنى فى الأدب ـ شعرا ونثرا ـ تم فى مجالين هما :

إثراء المعجم العربى : بإضافة مفردات جديدة تدور حول الإسلام بجوانبه المتعددة : اعتقادا وعبادات ، ومعاملات ، دنيا وآخرة . . . الخ .

تحول مقياس البلاغة والبيان من الغرابة والتعقيد فى ندرة الكلمات وصعوبتها ، وفى فخامة العبارات وتعاظلها ، تحوله إلى السلاسة والسهولة والرقة والبساطة مع رقة التعبير وقوة البيان، وذلك بحسن اختيار المفردات والاهتداء بأسلوب القرآن فى جمال التراكيب وعذوبتها .

ومن أمثلة الألفاظ القرآنية أو الإسلامية عامة ، التى مرت بنا فيما عرضنا من شعر ، وكذا الجمل أو التراكيب :

مجموعة تدور حول أسماء الله سبحانه وصفاته مثل : أمر الله ، ذو العرش ، رب المشرق ، حول ، نصر الله ، رب الناس ، عباد الله معاذ الله ، إله الحق، إله الخلق ، الله راء وسامع ، غفور لذنب المرء ، الله يحكم حكمه ، الله يرزقنا ، لك الخلق والنعماء ، إياك نستهدى وإياك نعبد ، توكلنا على الرحمن ، ثواب الله ويعيذنا الله العزيز ، الله نحمد ، أتوب إلى الله الرحيم .

مجموعة تتصل بالقرآن الكريم : كالوحى ، كتاب جاء بالحق ، كتاب منزل ، كتاب الله .

مجموعة ترتبط بالرسول عليه السلام : كالنبي والرسول ومحمد ومحمود ، مباركا برا حنيفا ، سنة . نور أضاء لنا ، نور يستضاء به ، راحم مرحوم ، خاتم ، رسول الرحمة ، للنبوة خاتم ، النبي المهتدى أمين الله أنذرنا نارا وبشر جنة ، سراجا منيرا وهاديا ، نبي الهدى نطيع أمر نبينا ، الباذلين نفوسهم لنبيهم ، يحرم شفاعته ، فترة من الرسل ، إذ قال في الخمس المؤذن أشهد ، خير البرية ، وضم الإله اسم النبي إلى اسمه .

مجموعة متنوعة : إسلام ، مسلم ، مسلمون ، جهاد مجاهد ، مجاهد ، هجرة ، مهاجرون ، أنصار ، موحد كفر ، كافر ، كفور ، مشرك ، أصنام ، أوثان ، الشرك ، الكفار ، الظلام بمعنى الضلال ، البر ، نسك ، ميكال ، الصالحون ، المؤمنون ، جنان ، نعيم ، أشهد ، شهادة عنله ، أتوب ، اغفر ، زلتى ، يوم الحساب ، نسج داود إذا بلغ النقر ، اعتمرنا ، الصبر للمتوكلينا ، رجلا يصلى ، بشرى الحياة ، جنان الفردوس ، روح القدس .

ولا شك أن هناك مئات أو آلاف العبارات والكلمات الإسلامية فى أشعار لم نستعرضها ، لأننا نمثل فحسب ولا نحصى .

بقى الوجه الآخر للتأثير الإسلامى فى الشعر لغويا ، وهو ميل الأسلوب للرقة والسلاسة والعذوبة ، ولا تعنى هذه السلاسة ضعفا فى اللغة أو هبوطا بمستوى الأسلوب عن الجزالة ومتانة النسج كما تصور بعض النقاد ـ ولكن

التبسط والجمال وهو ما يعكس تحولا بالإغيا هاما ، سوف تتضح قسماته حين نتقدم أكثر في عهد بني أمية ، فسوف نلتقي بالغزل العذري الشفيف ، يصاغ في أسلوب غاية في الرقة والجمال والموسيقية ، متخيرا مفرداته بعناية فائقة ، مبتعداً عن التقعر البلاغي ، وحشد الألفاظ المعجمية الضخمة ، متجنبا للغرابة والحوشية .

وقد رأى الدكتور عبد القادر القط في ظاهرة البساطة والرقة نوعا من ضعف المحتوى الشعرى خاصة فيما يتصل بالاسلام ومبادئه ، ولكنه يختفى إذا تناول الشاعر في نفس القصيدة أغراضاً أخرى ، ويمثل لذلك بهمزية حسان بن ثابت فيقدم أبياته التى يهدد فيها المشركين :

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع ، موعدها كداء
يبارين الأعنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء

والا فاصبروا لجلاد يوم

يعين الله فيه من يشاء

ويعقب الدكتور على تلك الأبيات قائلا : والشاعر فى هذه الأبيات — ولم يصل بعد إلى موضوعه الإسلامى — يمضى على طريقته فى المقدمة محتفظا بسمت شعره الجاهلية فى لغته وأسلوبه ، فإذا انتهى إلى الحديث عن المسلمين تغيرت لغته وشاع فيها كثير من الألفاظ الإسلامية ، وضعف ما فى أسلوبه من رصانة وتماسك ، وأصبح شعره أقرب إلى نظم المعانى الإسلامية منه إلى التصوير الشعرى :

وجبريل أمين الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبدا

يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه

فقلتم لا نقوم ولا نشاء

وقال الله قد يسرت جندا

هم الأنصار عرضتها اللقاء

والحق أن هذا المنهج يطرد فى أغلب شعر حسان الاسلامى ، فتأرجح شعره بين الأسلوب الجاهلى فى صوره ولغته ومعانيه ، وأسلوب لا يمكن أن نسميه إسلاميا

بالمعنى الصحيح ، وإنما يستخدم الشاعر فيه بعض الألفاظ القرآنية والمعاني الدينية ويتحال فيه من « المعجم الشعري الجاهلي » مؤثراً « البساطة » التي قد تنتهي أحياناً إلى ضعف النظم والركاكة » (١).

ويرجع الناقد الكبير هذا الضعف إلى أن الشعراء في تلك الآونة عاشوا فترة انتقال بين عصر وعصر ، حين فاجأتهم تجارب جديدة، هم لا يملكون رصيدا من التراث الشعري يعينهم على تصويرها ولم يتح لهم الوقت وتلاحق الأحداث أن يهتدوا — بعد — إلى أسلوب فني ملائم لاستيعاب تلك التجارب والتعبير عنها .

وأنا لا أتفق مع الناقد الكبير في اعتبار الأبيات التي قدمها لحسان أولا غير اسلامية ، فغرضها - أو فكرتها الأساسية - اسلامية إذ أنها تهديد للمشركين بما أعده لهم المسلمون ثم هي تحفل بالألفاظ الاسلامية ، وتبتعد لغتها عن الغرابة والتعقيد وتتسم بالوضوح والسلاسة .

وكذا فاني أتحفظ على وصم أسلوب حسان بالضعف الذي يصل إلى النظم الركيك ، خاصة في همزيته تلك ، فهي من روائع شعره الاسلامي وقد أشاد بها كثير من الدارسين ، كما لاقت نجاحا وانتشارا في عصرها ، ثم إن وجود بيتين أو ثلاثة في الأبيات الأربعة التي استشهد بها الناقد الكبير أقل مستوى وأرق نسجا ، لا ينقص من قيمة القصيدة ، ولا يسم الشاعر بالضعف والركاكة، فالقصيدة طويلة متعددة الأغراض

---

(١) في الشعر الاسلامي والأموي : ص ٤٦

كثيرة الاستطراد ، مما يوقع الشاعر فى بعض الهنات ونقاط الضعف ، وذلك يحدث لكثير من كبار الشعراء حتى الجاهليين .

لكن دفاعى — عن حسان وهزيته ، لا يمنع وجود شىء من الضعف وهبوط المستوى الفنى فى نماذج قليلة من الشعر الاسلامى — خاصة ما يعرف بشعر الفتوح .

وهذا الضعف يمكن تعليله بما ذكره الأستاذ الناقد عن فترة الانتقال وجدة التجارب ، وكذلك صدور تلك النماذج عن شعراء غير محترفين ولا معروفين بالشعر ، وإنما وضعتهم الأحداث فى خضم التجارب العنيفة التى هزت وجدانهم ، كمعارك الفتوح أو الاغتراب عن الوطن أو فقد الأعزاء ، فنظموا الشعر دون خبرة ومراس ، ودون رصيد من التراث الشعرى الجاهلى ولا حصيلة من الكلمات والعبارات والصور التى يختزنها الشاعر المحترف ، ويغترف منها كلما هم بالنظم .

والأقرب للصحة أن نرجع السهولة والتبسط فى قليل من أمثلة الشعر الاسلامى إلى اتخاذه وسيلة دعائية ، ثم إلى حرص الشعراء المسلمين على مواكبة الأحداث ، وأخيرا إلى استعماله سجلا وتأريخاً للوقائع والانتصارات .

فاتخاذه وسيلة دعائية يتطلب أن يكون قريبا من جميع المستويات الثقافية للجمهور المتلقى ، كما يتطلب أن يكون سريع الفهم ، وبالتالى سريع التأثير ، وكل ذلك يحوج الشاعر إلى استعمال لغة سهلة متداولة

وإلى البعد عن الإغراب والتعقيد ، بل وحتى عن الوسائل الفنية التى تحتاج من متلقيها إلى تأمل وإعمال فكر وثقافة خاصة .

أما حرص الشعراء على مواكبة الأحداث فيدفعهم إلى كثرة النظم والاسراع إليه بمجرد وقوع الحدث كى لا يتهم بالتخلف عن المشاركة وعدم الاهتمام وذلك الاسراع يحرمه من التروى واختيار الفكرة ، ومعايشة التجربة واستبطان الشعور .

وأخيراً فإن استعمال الشعر سجلاً للوقائع ، وتاريخا للانتصارات يميل به إلى الخطابية والمباشرة وأسلوب السرد ، ويزحمه بالأسماء والأحداث والأيام والتواريخ والأماكن ، وكل ذلك ينأى به عن لغة الشعر وفنيته . ثم يشير الأستاذ الدكتور عبدالقادر إلى ظاهرة لغوية أخرى لدى بعض الشعراء الاسلاميين وعلى أن الظاهرة اللغوية التى لاحظناها عند الشعراء السابقين ما تزال قائمة فى قصيدة أبى ذؤيب إذ ترق ألفاظه ويسلس أسلوبه وتظهر ذاتيته فى المطلع النفسى ، ويعود إلى الغريب والجزالة والموضوعية فى لوحاته الوصفية(1) . ثم يرجعها الناقد الكبير إلى ضعف التأثير الاسلامى على الشاعر ، فهو يغترف من القديم فى الموضوعات التقليدية ، ثم يرق ويعذب فى المواقف النفسية الذاتية ، وهذا طبيعى فى الفترة الباكرة من العصر

---

(1) فى الشعر الاسلامى والأموى : صـ ٥٤ .

الاسلامی فلم يكن الشعر الجديد قد كون تراثه بعد ، لكننا مع تقدم الزمن سوف نلاحظ التغير والتطور ، والحق أن من أهم صور(١) التطور فى الشعر العربى حينذاك ، تلك اللغه الاسلامية الحضرية بأساليبها وألفاظها ، بعد أن مرت بمراحل من التطور التدريجى بدأت فى تلك المرحلة التى ندرسها ، ثم اتضحت معالمها فى العصر الأموى»(٢)

وهناك ظاهرة لغوية أخرى بدأت إرهاصاتها فى أول العصر الاسلامى ، ثم شاعت بعد ذلك وخاصة عند الشعراء الذاتيين أو العاطفيين فأصبحت ظاهرة مشتركة بين كثير منهم ، وقد أشار الدكتور القط إليها فى قصيدة أبى ذؤيب وفى قصيدة أخرى منسوبة إلى مضرس بن قرط ، تلك هى ظاهرة تكرار كلمة معينة فى نفس البيت أو فى بيتين متتاليين لعدة أهداف .

١ — تحقيق المفارقة والتقابل بين أمرين أو وجهين :

يقول أبو ذؤيب :

سبقوا هواى ، وأعنقوا لهواهم
فتخرموا ، ولكل جنب مصرع

---

(١) أضفت كلمه صور لأن النص بدونها لا يستقيم .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

فقد أراد بكلمتى هواى ، هوام ، إحداث مفارقة وتقابل بين ما كان يرجوه من موته قبل أبنائه ، وبين الواقع المر حين سبقوه بموت جماعى .

ويقول عباس بن مرداس فى مدح النبى ﷺ :

ونورت بالبرهان أمرا مدمسا

وأطفأت بالبرهان نارا مضرما

فتكرار البرهان يؤدى إلى تقابل بين إنارة ظلام الجهل والضلال وإطفاء نار الشرك والكفر . ويقول حسان بن ثابت :

إن كان فى الناس سباقون قبلهم

فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

فسبق ، سبقهم أظهرتا الفارق بين نوعين من السبق أحدهما للمسلمين الذين يفخر بهم حسان والثانى لغيرهم .

(٢) تكرار اللفظ لتحقيق إيقاع يؤكد حدة الإحساس عند المتلقى ، كما يثير لديه توقعا للقافية :

يقول ربيعة بن مقروم الضبى :

ودعوا نزال ، فكنت أول نازل

وعلام أركب إذا لم أنزل

فكلمة نازل فى الشطر الأول هيأت القارىء لتوقع القافية ، كما أن الكلمات الثلاث : نازل ، نوال ، أنزل أكدت إحساس المتلقى بالإقدام والشجاعة التى تملأ نفس الشاعر .

يقول حسان بن ثابت مفتخرا بقومه :

قومى الذين هم آووا نبيهم

وصدقوه وأهل الأرض كفار

إلا خصائص أقوام هم سلف

للصالحين ، مع الأنصار أنصار

فأنزلوه بدار لا يخاف بها

من كان جارهم ، داراً هى الدار

فى البيت الثانى تدفعنا كلمة الأنصار إلى توقع القافية كما تؤكد الإحساس بعظمة الممدوحين .

وكذلك دار فى البيت الثالث تجعلنا نتوقع القافية وتزيد شعورنا بما لقيه الرسول الكريم من ترحيب وحفاوة ونصر فى المدينة بين الأنصار .

ويقول أبو ذؤيب فى رثائه لبنيه :

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا

إلا أقض عليك ذاك المضجع

فضجها الأولى جعلت القارىء يتوقعها رويا ، كما أحدثت ايقاعا بين العروض والقافية يقوى حدة إحساس الشاعر بالأرق والحزن الممض

٣ ـ الربط بين بيتين مما يوضح ويقوى الاحساس الذى عنى الشاعر بنقله ، ويوحد بين أجزاء الصورة :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فاذا المنية أقبلت ، لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

لقد وزع أبو ذؤيب فكرته وصورته على البيتين ، وكرر لفظ المنية ليربط بينهما ويلم شمل أجزاء الصورة .

وحسان بن ثابت حين قال فى همزيته :

أبلغ أبا سفيان أن محمدا
هو الغصن ذو الأفنان ، لا الواحد الفرد
وأبلغ أبا سفيان عنى رسالة
فما لك من إصدار عزم ، ولا ورد

فتكرار « أبا سفيان » ربطت بين البيتين ، وجمعت أجزاء صورتى الممدوح : النبى — والمهجو أبو سفيان —

أما كعب بن زهير فى « بانت سعاد » فيقول :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها

الا العتاق النجيبات المراسيل

وان يبلغها إلا عذافرة

فيها على الأين إرقال وتبغيل

فقد ربط بين البيتين كما أجاد التعبير عن حسه ببعد الحبيبة ، وطول المسافة بينهما حين كرر يبلغها .

وبوسعنا الآن استخلاص ماحدث في لغة وأساليب الشعر الاسلامى من تطور خلال العهد النبوى والراشدى :

١ ـ التأثر بالقرآن الكريم فى مجالين : اثراء المعجم العربى بمفردات جديدة ترتبط بالإسلام فى مختلف جوانبه وكذلك فى تحول مقياس البلاغة إلى السهولة والرقة .

٢ ـ ميل الشعر الاسلامى إلى الرقة والبساطة يرجع إلى أن الفترة تعد انتقالا بين عصرين ، وجود تجارب جديدة لم تتأصل طرق التعبير الفنى عنها ، ولأن الشعر وسيلة دعائية وسجلا للوقائع والتاريخ ، والشعراء يتابعون الأحداث بإنتاج سريع فلا يجدون فرصة للتنقيح والتهذيب .

٣ ـ كثير من الشعراء غير محترفين ، فلا يملكون رصيدا فنيا ولا خبرة وممارسة .

٤ ـ استغلال ظاهرة التكرار اللفظى لعدة أهداف .

(رابعا) البناء الفني : يتفق الدارسون للشعر في باكورة العهد الإسلامي على أن التغيير الجذري الخطير الذي أحدثه الإسلام في شتى جوانب الحياة ، كان بحاجة إلى فترة زمنية طويلة لكي يستوعبه الشعراء ويتمثلوه ويعايشوه وجدانيا وذهنيا ، ثم يهتدوا - بعد تجارب ومحاولات إبداعية - إلى وسائل فنية حديثة ، ولغة شعرية موحية معبرة ، وصور مبتكرة مناسبة ، ويمتزج كل هذا في نسيج شعري محكم ، يعبر عن الحدث الكبير ويتلاءم مع أهميته وقوته .

وعلى ذلك . . فضعف المستوى الفني لشعر تلك الفترة - لو سلمنا بوجوده - لا يرجع إلى التأثير السلبي للإسلام على الشعر ، وإنما يعود إلى قصر الفترة - موضوع الحكم - وبالتالي عدم توافر الوقت الكافي للتجويد والابداع الفني المتقن .

وبالإضافة إلى هذا التحفظ ، يجب أيضا قبل النظر في البناء الفني للشعر خلال العهد النبوي والراشدي ، أن نضع في الاعتبار أمرين مؤثرين :

(١) الكثرة الهائلة في نماذج الشعر ، وخاصة ما صيغ في معارك الفتوح ، إن الإنسان ليدهش حقا أمام هذه الكثرة من الشعراء ، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعا قد استحالوا شعراء ،[1] وجل هؤلاء الشعراء ليسوا معروفين ولا محترفين ، وإنما هم من عامة المجاهدين ،

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٣٠٥

حفزهم الموقف وهزتهم التجارب ، وأثارت مشاعرهم ظروف الجهاد والغربة والشوق، فنظموا الشعر دون أن يتجهزوا بادواته أو يتمرسوا بسماعه وروايته وكتابته ، وفى هذا الخضم الهائل من النماذج البسيطة السريعة لشعراء مغمورين غير مجودين، تغرق وتضيع نماذج أخرى متميزة ورائعة للشعراء الممتازين ، ويكون حكم الدارسين على الشعر الإسلامى عامة بالضعف الركاكة .

(٢) حرص الشعراء على متابعة الأحداث المتلاحقة فى المجتمع الإسلامى ، وكأنما أصبح الشعر سلاحا آخر من أسلحة القتال ، يعتمد عليه المقاتلون كما يعتمدون على سيوفهم ورماحهم وسهامهم . . وفى أعقاب كل يوم من أيام القتال ، يقف الشعراء يرثون شهداءهم ، ويستلهمونهم الحماسة والتضحية ، كما يتحدثون عن مصارع أعدائهم ، ويفتخرون بأنهم أوردوهم موارد الموت والهلاك ، فى سبيل نصرة القضية التى يقاتلون من أجلها (١) كل ذلك عدا الأغراض والقضايا الأخرى.

وبعد هذين الاعتبارين يمكننا إلقاء الضوء على جانب البناء الفنى لنرى ما استبقاه الاسلاميون من تراث جاهلى وما أضافوه جديدا إلى نسق القصيدة العربية وتصميمها .

(١) المقدمات الغزلية والخمرية فى القصيدة : توزعت مقدمات

---

(١) تاريخ الشعر العربى : د . يوسف خليف صـ ٢٩

القصيدة الجاهلية بين الغزل ممزوجا بالخمريات أو متداخلا مع الاطلال ، وقد ظل هذا التقليد فى ساريا الشعر الاسلامى إلى زمن متأخر ، بل امتد عند البعض إلى العصر الحديث - مثل أحمد شوقى - أحيانا .

وتقبل النقاد بداية الغزل الذى يختلط بالأطلال أو يتفرد ، ولكنهم وقفوا موقف الشك والتردد من المقدمات الغزلية الخمرية ، ويشك بعض الدارسين فى هذا الجزء الأول من القصيدة ويرون أن الشاعر لابد أن يكون قد نظمه فى الجاهلية ، ثم عاد فأتم القصيدة بعد الاسلام . ذلك لأنهم ينكرون أن يتحدث شاعر إسلامى ، وثيق الصلة بالدعوة والرسول ، مثل هـذا الحديث الصريح عن الخمر «[1] بذلك يعقب الدكتور عبد القادر على مطالع همزية حسان بن ثابت ، ثم يشير إلى مطالع أخرى لحسان وشعراء غيره ، يختلط فيها الغزل باشارات الخمر ، ولا يرى فى ذلك غرابة تدعو إلى الشك فيما إذا كانت تلك المقدمات نظمت أيام الجاهلية ، ثم أكمل الشاعر القصيدة بعد الاسلام ، ويرى كذلك أن المجتمع الاسلامى لم يكن متزمتا مع الشعراء ، بل كان يعد أبيات الغزل والخمر تقليدا فنيا ليس إلا ، ولا يعبر بالضرورة عن سلوك عملى أو تحلل أخلاقى . « ألم ترى أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[2] .

---

(1) فى الشعر الاسلامى والأموى ص ٤٣

(2) سورة الشعراء : آيه ٢٢٤

ويمكن أن نضيف فى تعليل تلك الظاهرة — ذكر الخمر — أن تحريم الخمر وشربها تم تدريجيا ، وعلى مراحل ، فلعل تلك الأبيات قد نظمت قبل أن يحدث التحريم الكامل ، كذا كان الشاعر يتطرق إلى الخمر غالبا لكى يصف رضاب المحبوبة ، فهو لا يفرد للراح حديثاً ، ولا يمنيها لذاتها ولا يفاخر بشربها أو يصف مجالسها ، إنما هو تشبيه فحسب ، أو صورة فنية ورثها عن السابقين .

وخلاصة الأمر أن مطالع القصيدة الاسلامية ظل محافظا على النهج الجاهلى ، فهو :

(١) غزلى خالص (٢) يتداخل فيه الغزل بالخمر

(٣) يمزج بين الغزل وبكاء الأطلال .

(٤) يدخل فى الغرض الأصلى للقصيدة دون مقدمات .

(٢) وحدة الدلالة ووحدة التجربة فى القصيدة : يشير الدكتور « عبد القادر » إلى إرهاصات بتطور هام فى بناء القصيدة العربية بدأت بواكيره فى هذا العصر ، ثم تزايد حتى ميز كثيراً من القصائد فى العهد الأموى ، وذلك التطور يتبدى فى كون القصيدة ذات دلالة واحدة ، وتصب فى بؤرة شعورية واحدة ، حتى وإن تعددت موضوعاتها .

ويمثل الأستاذ الناقد بقصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أولاده ، حيث

جمعهما في بناء محكم يتكون من مقدمة تعرض ماساة الشاعر في فقد بنيه ، ثم يرسم ثلاث لوحات لمقتل حمار وحشي وثور وفارس شجاع ، بادئا كل لوحة بشطر لا يتغير :

« والدهر لا يبقى على حدثانه » .

فيربط بهذا التكرار بين المقدمة واللوحات الثلاث ، كما يعطى لقصيدته دلالة واحدة هي أن الفناء نهاية كل حي .

وفي تصوري أن هذا التطور موجود في قصائد أخرى غير قصيدة أبي ذؤيب ، فكثير من قصائد حسان قد خلصت لغرض واحد ، كالفخر أو المدح أو الرثاء ، وكثير من قصائد كعب بن مالك اقتصرت على وصف معركة من المعارك بين المسلمين وأهل الشرك ، وهناك شعراء مختلفين خصصوا قصائدهم لوصف إحدى معارك الفتوح ، أو التعريف ببلد جديد رحل اليه المجاهدون ، أو رثاء الشهداء في أحد المواقع .

ومن المرجح أن وجود ذلك التقليد الشعري الذي عرف مؤخرا بعمود الشعر ، ويعني البدء بالغزل أو الأطلال ، ووصف الناقة والصحراء ، ثم الغرض الأصلي ، فخاتمة من أبيات الحكمة ، من المرجح أن وجود ذلك التقليد في الجاهلية كان وراء توزع القصيدة ، وعدم اتساقها في تجربة شعورية واحدة ، وبعض القصائد الجاهلية — مثل ما قيل في الرثاء — قد برئت من التشتت والانقسام ، وخلصت

الفكرة واحدة ، وتمتعت بوحدة الشعور والتجربة ، لأنها لم تخضع لذلك التقليد .

فلما جاء الاسلام ، وقلت سيطرة التقاليد الشعرية الجاهلية وعاش الشعراء تجارب شعورية حارة عنيفة ، تحررت بالتالى قصائدهم الاسلامية من تعدد الأغراض ، فتوافرت لها وحدة الدلالة ووحدة التجربة .

٣ ـ الافادة من قصص القرآن عن الأمم السابقة : لا ريب أن القرآن الكريم نبع ثر لا يغيض يستمد منه الشعر معانياً وأفكارا وأمثلة ورموزا ، بعد أن اهتدى بهديه لغة وأسلوبا ، والشيء الجديد يبدأ دائما مجرد لمحات وإرهاصات ، لكنه يسرى وينتشر بعد ذلك ليكون ملامح وقسمات ، ذلك ما نجده فى مجال الافادة من قصص القرآن إنها إشارات موجزة وسريعة ، بمثابة القبسات المنيرة يقول عبدالله بن الحارث بن عدى :

وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر

وهو يشير إلى الأمم السابقة حين كذبت رسلها وكفرت بربها مستفيداً من قوله تعالى (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم

القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[1] ، وكذلك من قوله جل شأنه ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[2] .

وأخيرا فإن الشاعر يستوحى قول الله عز وجل ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾[3] .

أما شداد بن عارض الجشمى فى تخويفه أهل الطائف وتحذيرهم من قتال الرسول ، إن هم تمسكوا بأصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها
وكيف نصركم من ليس ينتصر
تلك التى حرقت بالنـــار فاشتعلت
ولم يقاتل لدى أحجـارها هــــدر

إن كبير الآلهة « هدر » لم يستطع الدفاع عنها حين أحرقت تماماً كما فشل كبير الأصنام قديما فى الدفاع عنها عندما حطمها ابراهيم ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا

---

(1) سورة هود : آية ٥٩/٦٠ .
(2) سورة العنكبوت : آية ٣٥/٣٦ .
(3) سورة الحجر : آية ٨٠ .

فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ (١).

وليس من شك فى أن هناك أمثلة عديدة لمن أراد استقصاء الظاهرة ، فقول عبدالله بن رواحة :

فثبت الله ما آتـــاك من حسن

تثبيت موسى ، ونصر كالذى نصروا

فيه استيحاء لآيات كثيرة تحكى قصة موسى عليه السلام وتأييد الله له ونصره إياه على فرعون وجنده ، ومنها قوله تعالى ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى الـــيم وهو مليم ﴾(٢)

وفى قول كعب بن مالك(٣) :

وأنـــ تك نمل البر بالوهم كلمت

سليمان ، ذا الملك الذى ليس بالعمى

فهـــذا نبى الله أحمـــد سبحت

صغار الحصى فى كفه بالـــترنم

إفادة واضحة من سورة النمل وقصة النبى سليمان مثل قوله جل شأنه:

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٢/٦٣ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٣٨/٤٠ .

(٣) يشك د. عبدالقادر القط فى نسبة هذه الأبيات لكعب ص٣٢ .

﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ (١) .

وأمثال ذلك كثير ، وحقيقة أنها إشارات موجزة ، لم يحسن الشاعر فيها استغلال المنهل القرآني الفياض ، ولكنها البداية التي تشوبها جدة المحاولة ، وتنتقص منها سذاجة الريادة ، وهي على أي حال لمحات دالة لما تركه القرآن الكريم من تأثير — لغة وأفكارا — وعلى استجابة الشعراء الإسلاميين لما يتطلبه التغيير الجذري من تجديد في أسلوب بناء القصيدة العربية .

٤ — اتخاذ الشاعر للحمامة أو أحد مظاهر الطبيعة رمزاً : الشعر إيحاء ولمح ، رمز وإشارة ، وكلما ابتعد عن الخطابية والمباشرة ، كلما تجنب التصريح والايضاح ، اقترب أكثر من الشاعرية والحدس ، واحتوى عنصر الأصالة والتميز ، والإنسان دائما بحاجة إلى التأسي ، ميال للبحث عن شبيه وند ، يبثه شجوه ، ويفضي له بهمه ويناجيه ، يقارن بين حاله وحاله ، ويوازن بين آلامه وأوجاع نده ، ويستخلص العزاء أو يشبت قوة احتماله وصبره ، والشاعر أكثر الناس حاجة إلى ذلك التأسي والسلوى ، فهو الأشد إحساسا والأرهف شعورا والأرق وجدانا والأوجع قلبا .

وقد كانت الطبيعة دائما أما حنونا ، يجد الشاعر فيها تعاطفا

---

(١) سورة النمل : آية ١٨ .

ومصادقة، ويتخذ من ظواهرها ـ حية وجامدة مستأنسة أومستوحشة يتخذ منها أشباها ونظائر ويستعملها رموزاً وموضوعات ، يخلع عليها ما يريد قوله عن نفسه ، ويتوسل بها إلى بيان حاله والتعبير عن شكواه، لقد هام امرؤ القيس فى الفلاة المفزعة بلا أنيس ولا صديق فالتقى بالذئب الجائع ، يشبهه فى الفقر والعوز(١) :

فقلت له ـــ لما عوى ـــ إن شأننا

قليل الغنى ، إن كنت لما تمول

كلانا ـــ إذا ما نال شيئا ـــ أفاته

ومن يحترث حرثى وحرثك ، يهزل

وعنترة ، حين مر على أطلال الديار بعد رحيل المحبوبة ، هيجت دموعه عبرات الحمامة (٢) :

أفمن بكاء حمامة فى أيكة

ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل

كالدر أو فضض الجمان تقطعت

منه عقائد سلكه ، لم يوصل

وفى قصيدة أخرى يحاور الطير مقارنا بين حاليهما فيجد نفسه أكبر هما وأحزن قلبا(٣) :

---

(١) الشعر الجاهلى بين القبلية والذاتية : د. اخلاص فخرى ص٩٧ .
(٢) موسوعة الشعر العربى : مطاع صفدى : ص٤٥٩ .
(٣) المرجع السابق صـ ٥٥٨

كيف السلو، وما سمعت حمائما

يندبن إلا كنت أول منشد

وسألت طير الدوح: كم مثلي شجا

بأنينه وحنينه المتردد؟

ناديته، ومدامعي منهلة

أين الخلي من الشجي المكمد

لو كنت مثلي، ما لبثت ملاوة

وهتفت في غصن النقا المتأود

ويتأسى النابغة بالحمامة أيضاً(1) :

أسائلها، وقد سفحت دموعي

كأن مفيضهن غروب شن

بكاء حمامة تدعو هديلا

مفجعة، على فنن تغني

لكن تلك الاشارات الموجزة العجلى في الشعر الجاهلي تنمو مع تطور الثقافة، وارتقاء الفن الشعري، فنجدها في العصر الاسلامي تتحول إلى صورة شعرية رائعة، يتخذ الشاعر فيها من الحمامة رمزاً

---

(1) في الشعر الاسلامي والأموي : د. عبدالقادر القط ص٦٣ .

أو معادلا موضوعيا ويعكف على تفصيل المقارنة بينهما من جوانب متعددة ليخلص في النهاية إلى تماثلهما في الألم . يقول حميد بن ثور الهلالي ، وهو شاعر مخضرم أدرك عمر بن الخطاب[1] :

وما هـاج هذا الشوق إلا حمامة
دعت ساق حر ، ترحة وترنما

تبكى على فرخ لها ، ثم تغتدى
مولهة تبغى له الدهر مطعما

تؤمل منه مؤنسا لانفرادها
وتبكى عليه إن زقا أو ترنما

عجبت لها ، أنى يكون غناؤها
فصيحا ، ولم تفغر بمنطقها فما

فلم أر محزونا له مثل صوتها
ولا عربيا شاقه صوت أعجما

كمثلى إذا غنيت ، ولكن صوتها
له عولة ، لو يفهم العود أرزما

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٣ ، ساق حر : ذكر الحمام القمرى أعجما : لا يفصح ، ويقصد الحمامة ، العود : الجمل المسن ، أرزما : حن وتشوق .

ويتكرر الرمز فى أبيات وقصائد أخرى ليصبح أداة فنية جديدة يستعين بها الشاعر الإسلامى على مزيد من التأثير والايحاء، ويبتعد بها عن الخطابية والمباشرة ، وهو ينوع فى رموزه مستلهما كل مظاهر الطبيعة، يقول ابن الغريزة النهشلى أثناء معركة جوزجان ببلاد فارس(١) :

وما بى أن أكون جزعت ، إلا

حنين القلب للبرق اليمـــانى

والبرق أيضا يهيج الذكرى والحنين عند شاعر آخر أحس غربة الروح بعد غربة البدن حين خرج غازيا بعيدا عن نجد ، ليس البرق وحده الذى شاقه من الوطن ، بل أقفار وجرة ، وريح الخزامى ، وربا حبيبة القلب، كلها رموز للوطن تثير الشاعر وتحرك شجونه ،ويتحدث عنها فيصور من خلال الحديث أشواقه وشجونه (٢) :

أتبكى على نجد وريا ولن ترى

بعينيك ريا ما حييت ولا نجدا

ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة

ولا واطئا من ترب نجد ثرى جعدا

ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها

رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا

---

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : صـ ٦٣

(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : صـ ٣١٢

ألا أيها البرق الذى بات يرتقى

ويجلو نجى الظلماء ذكرتنى نجدا

ويتسع الرمز ليشمل الأرض بكل ما عليها : التراب والمطر والزهر، بل والخيام أيضا فهى رمز السكن والأهل والدفء والحنان، إنه شاعر لم يمن بتثبيت اسمه فى ذاكرة الرواة ، كفاه أن زفر حنينه واستراح[1] :

حنينا إلى أرض كأن ترابها

إذا أمطرت ، عود مسك وعنبر

بلاد كأن الأقحوان بروضه

ونور الأقاحى ، وشى برد محبر

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتى

طرف يقصر

إنما يشار فصل رقيق فى ديوان الشعر العربى سوف ينظم عبر العصر الإسلامى الأول ، طلائعه فى عهد النبوة والراشدين ، ثم يستوى دانى القطاف عبر العهد الأموى ، وتتفرع منه دوحة عظيمة باسقة تظلل سماء الشعر الأندلسى ، فصار يجمع إلى رقة المعانى ورقة اللغة أدوات فنية ناضجة تعتمد الرمز والإيحاء ، مستلهمة رموزها من الطبيعة بكل عناصرها الناطقة والصامتة من طيور مختلفة ونباتات

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

متباينه وجبال ووديان وأنهار وبحار ورياح وأمطار ، وتتوزع أغراضه بين الغزل العذري الشفيف وبين الحنين إلى الوطن .

(٥) مقطوعات وقصائد في أوزان مختلفة : يرى الدكتور شوقي ضيف أن أغلب شعر الفتوح مقطوعات قصيرة موجزة ، ارتجلها المجاهدون بلا روية أو أناة ليصوروا أحداث القتال ذات الايقاع السريع ، فهي أشبه بتقارير وبلاغات تصدر من الميدان حاملة أخبار المعركة ، موجزة أحوال المحاربين ، مبشرة بالنصر ، مطمئنة لأهل والوطن . كما يرى الأستاذ الكبير أن الرجز هو الوزن الغالب على شعر الفتوح ؛ لأنه اللحن المناسب للمواقف السريعة والأحداث المتتابعة (١).

وفي تصوري أن هاتين الملاحظتين تصدقان على بعض شعر الفتوح وليس كله ، لأن فيه قصائد طوال كما ضم أوزانا متنوعة غير الرجز .

أما الشعر الإسلامي عامة ، فقد حوى كل الأنواع بين مقطوعات قصار، وقصائد متوسطة ، وأخرى طويلة، وكذا سبح الشعراء المسلمون في أغلب البحور الشعرية ونظموا في جميع الأوزان حسب تنوع الأغراض وتعدد المواقف .

(٦) العاطفة والانفعال : من المسلم به أن توهج الشعور وإثارة

---

(١) راجع : العصر الإسلامي : صـ ٦٦/٦٧

العاطفة وحدة الانفعال ، كل ذلك هو العامل الأول والأهم فى انبثاق الشعر وتفجر ينابيعه .

وإذا كانت الحمية والصراع فى الحروب القبلية من أهم عوامل ازدهار الشعر الجاهلى ، حتى أن مكة لم تعرف شعراء لأنها ظلت بمنأى عن الصراع إلى بعث الرسول ﷺ ، فكيف وقد غدت المعارك القبلية الصغيرة حروبا طويلة متجددة مع أمم أخرى ، وكيف وقد صار الصراع عقائديا بين الإيمان والكفر ، بين التوحيد والشرك ؟

وكيف إذا أصبح النصر باعلاء كلمة الحق ونشر لواء الدين أو الاستشهاد فى سبيل الله هو الغاية ؟

كيف يكون الشعر إذا توافرت له كل تلك البواعث المثيرة ؟ ثم توافرت له بالاضافة لها بواعث الحنين والاغتراب برحيل المجاهدين ، وبواعث الدهشة والانبهار بالبلاد الجديدة المفتوحة ؟

وكيف إذا عمرت قلوب الشعراء مع كل ذلك بالدين القيم ، وسمت نفوسهم بالقيم الأخلاقية والانسانية الرفيعة ؟ لقد تفاعل ذلك جميعه ليولد موهبة الشعر لدى عشرات أو مئات لم يكونوا من محترفى الشعر ، بل كانوا يقولونه فى لمحات من الانفعال القوى لفقد عزيز أو اغترابه فى الفتوح ، أو لحنين جارف إلى موطنهم الأول ، أو للفخر بفروسيتهم وبلائهم فى حروب الفتح »(1) .

---

(1) فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٤٩/٥٠

ومن هنا تناثرت عشرات ، بل مئات المقطوعات فى كتب السير والمغازى والتاريخ والأدب لشعراء لم يعرفوا قبلها بالشعر ، وإنما حفزهم إلى نظمه وقدة انفعال لموقف عنيف عن معركة أو سفرة ولذلك جاءت أشعار هؤلاء المقلين تلقائية فى مقطوعات قصيرة أقرب ما تكون فى لغتها وصورها إلى طبيعة الحياة العصرية حينذاك ، مع شيء من التوتر الذى يستدعيه الانفعال القوى .

وخلاصة ما يقال فى مجال البناء الفنى للقصيدة :

(١) ظل المطلع كما كان فى الجاهلية : إما غزلياً صريحاً أو يمزج الغزل بالأطلال ، أو بالخمر ، لكن أكثر القصائد يدخل الشاعر الإسلامى إلى غرضه دون مقدمات .

(٢) أول ما يلاحظ من تطور فى البناء الفنى للقصيدة الإسلامية ظهور وحدة الدلالة ووحدة التجربة الشعورية فى عدد منها .

(٣) والتطور الثانى هو الإفادة من قصص القرآن الكريم ، وإن كان ذلك فى بدايته بسيطاً ومحدوداً .

(٤) اتخاذ الشاعر لأحد مظاهر الطبيعة رمزاً ، وكانت له بدايات قليلة فى الجاهلية ، لكن الإسلاميين توسعوا فيه وأحسنوا استغلال الرمز فى رسم صور فنية .

(٥) قسم كبير من شعر الفتوح صيغ فى مقطوعات قصيرة وبعضه على وزن الرجز ، لكن الشعر الإسلامى عامة ضم القصائد بأطوال مختلفة ومن أوزان متعددة .

(٦) توافرت للشعر الإسلامى بواعث جديدة من التجارب الشعورية والأحاسيس المتنوعة والانفعالات القوية .

المصادر والمراجع

١ — القرآن الكريم :

٢ — الأدب الأموى : د. محمد فتوح أحمد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠ .

٣ — الأدب فى عصر النبوة والراشدين ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٩

٤ — الأغانى : أبو الفرج الاصفهانى : تحقيق إبراهيم الإبيارى . دار الشعب ١٩٦٩

٥ — البيان والتبيين : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق : فوزى عطوى ، دار صعب ، بيروت ١٩٦٨

٦ — تاريخ الشعر العربى فى العصر الاسلامى : د. يوسف خليف ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٠

٧ — تاريخ الشعر العربى ج١ : د. محمد عبدالعزيز الكفراوى ، نهضة مصر ١٩٨٨

٨ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧

٩ — التأثير النفسى للاسلام فى الشعر : د. عبدالرحيم زلط ، دار الفكر العربى

١٠ — جرير ونقائضه مع شعراء عصره : د. محمد عبد العزيز الكفراوى نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨

١١ — حديث الأربعاء جـ ٢ د. طـه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢ — الحطيئة ، البدوى المحترف : د. درويش الجندى ، نهضة مصر القاهرة ١٩٦٢

١٣ — الحيوان : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٨

١٤ — دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى : د. محمد عبد القادر أحمد ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦

١٥ — دراسات فى الأدب العربى : د. عمر الطيب الساسى ، دار الشروق ، جدة ١٩٧٨

١٦ — ديوان حسان بن ثابت : تحقيق د: سيد حنفى حسنين ، دار المعارف ١٩٨٧

١٧ — ديوان الأعشى الكبير : شرح وتعليق : د. محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة

١٨ — شرح التبريزى على «بانت سعاد» تحقيق وتعليق : د. عبد الرحيم الجمل مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٠

١٩ ـ شعر عصر صدر الاسلام : د. محمد عادل الهاشمي ، مكتبة المنار ، الأردن ١٩٨٦

٢٠ ـ الشعر والشعراء أبو محمد عبدالله بن قتيبه ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥

٢١ ـ العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٨٩

٢٢ ـ العقد الفريد شهاب الدين بن عبد ربه ، تقديم خليل شرف الدين ، دار مكتبة الهلال بيروت

٢٣ ـ في الأدب الاسلامي والأموي : د. ابراهيم عبدالرحمن ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠

٢٤ ـ في الشعر الاسلامي والأموي : د. عبدالقادر القط ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠

٢٥ ـ فيض القدير على شرح الجامع الصغير : العلامة المناوي ، دار احياء السنة المحمدية ، القاهرة

٢٦ ـ قراءة في الأدب الاسلامي والأموي : د. محمد عبدالعزيز الموافي ، مطبعة التقدم ، القاهرة ١٩٨٣

٢٧ ـ قضايا الشعر في النقد العربي : د. ابراهيم عبدالرحمن ، مكتبة الشباب القاهرة ، ١٩٧٧

٢٨ ـ لسان العرب : ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة

٢٩ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي
مؤسسة جمال للنشر ، بيروت

٣٠ — مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، دار الشعب بالقاهرة

٣١ — من قيثارة الشعر العربي : د. فتحي محمد أبو عيسى ، دار
المعارف ١٩٨٠

٣٢ — نحو أدب اسلامي معاصر : أسامة يوسف شهاب ، دار البشير
عمان ١٩٨٥

٣٣ — نظرات في الشعر الاسلامي والأموي : ظافر القاسمي ، دار
النفائس ، بيروت ١٩٧٧

كتب أخرى للمؤلفة

١ ــ الطائر المهاجر : شعر، ط١ دار الشروق جدة ــ ١٩٨٦ ، ط٢ مكتب الآداب القاهرة ١٩٩١

٢ ــ وكذا الرجال : شعر مكتبة ذات النطاقين القاهرة ١٩٩٠

٣ ــ الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية: دراسة أدبية مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩١

٤ ــ قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر نقد أدبي : مكتبة الآداب القاهرة ١٩٩٢

٥ ــ فى القصة القصيرة والرواية : نقد أدبي : مكتبة الآداب ١٩٩٢

٦ ــ الاسلام والشعر دراسه موضوعيه : مكتبة الآداب ١٩٩٢

تحت الطبع

١ ــ شاعر عبقري « شفيق المعلوف » دراسة أدبية

٢ ــ الحنين والغربة فى شعر المهجر : دراسة أدبية

٣ ــ فى صحبة شعراء المهجر : نقد أدبي

٤ ــ الشعر وهموم الإنسان المعاصر : نقد أدبي

٥ ــ قبل فوات الوقت : شعر

رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٦٥

الترقيم الدولى I.S.B.N· 977-241-063-

الإسلام والشعر

- ليس في القرآن الكريم تحريم لنظم الشعر، أو تحقير له، إلا حين يتنكب طريق الهدى، ويحيد عن الخلق والدين.

- لا يعادي القرآن الشعراء ولا يذمهم، إلا إذا انحرفوا عن الحق وأساؤا للغير.

- تتفق السنة المشرفة مع القرآن، فترحب بالشعر منبعثاً من النفس المؤمنة الخيرة، وتفسح مكاناً للشعراء إن ابتعدوا عما يغضب الله ورسوله.

- سار الراشدون والصحابة على نهج القرآن والسنة فتركوا الشعراء أحراراً ما لم يحاربوا الله ورسوله ويؤذوا المسلمين، وأخذوهم بالشدة حماية للدين والمجتمع.

- الإسلام - ممثلاً في القرآن والسنة وسلوك التابعين والخلفاء - رحب بالشعر فناً إنسانياً مهذباً، يدعو للخير والحق والجمال.

- لا يمكن لدعوة عالمية ترسم منهاج حياة جديدة للإنسانية أن تسقط الشعر من حسابها وسيلة للدعوة وسلاحاً للجهاد ومجالاً للإبداع الفني.

الثمن ٥ جنيهات